كتاب الهلال

كوبا

للتمساح دموع حقيقية

فوميل لبيب



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ . سبعة خطوط .

KITAB ALHILAL

العدد ٤٤٨ شعبان - ابريل ١٩٨٨

No. 448 April 1988

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

• القيمة [illegible] الهلال فى ج

الخارج بشيك

البريد المسجل

اهداءات ٢٠٠١

المهندس / محمد عبد السلام العمري

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحـــة حســـــنين



بقلم

فوميل لبيب

دار الهلال

كاسترو اسطورة بين الدموع !!

تخطو الثورة الكوبية الى عامها الثلاثين بعد أن عبرت طريقا مليئا بالاشواك والدموع والتضحيات . ومرور جيل كامل على ثورة أحدثت دويا يجعل وضعها في الميزان ضرورة ، في عالم أصبحت فيه تجارب السياسة وممارسات الاقتصاد متنوعة لا توضع تحت عناوين ثابتة ومتطورة لا تبقى على حال . في ٢ يناير عام ١٩٥٩ تقدم فيدل كاسترو بقواته الى سنتياجوده كوبا وسط تحية الشعب وهتافاته ، وفي صباح ٨ يناير دخل هافانا على راس جيش الثورة المشكل أساسا من الفلاحين البسطاء وكان هدف كاسترو من ثورته أن يحرر الغالبية من جشع الاقلية ، وينهي استغلال الانسان للانسان ..

ولم تكن الولايات المتحدة الامريكية راضية عما حدث ، فكوبا بالنسبة لها هي حقول القصب ومعصرة النبيذ ومتجر التوابل ، وماخور المغامرين . وشواطيء أصحاب الملايين ، وكازينو القامرين ، ووكر عصابات التهريب . كوبا عند الولايات المتحدة هي ماكنا نرى في الافلام الامريكية التي تختار هافانا . ديكورا لها .. وحكايات الامريكيين فيها موضوعا مثيرا .. على الا يظهر الكوبي في الافلام الا تابعا مطيعا ، أو متمردا نذلا تجند له الرصاصات الأمريكية ..

وكان فيدل كاسترو يرى هذا كله ، ويعرف هذا كله

.. ولكنه لم يكن شيوعيا ليقلب المائدة على الامريكيين ، وفي يومياته الاولى أنه حاول أن يسمع الامريكيين وجهة نظره ، فطار الى واشنطن ليقابل الرئيس دوايت ايزنهاور .. وعرف الاخير بمن يطرق باب البيت الأبيض ، وكان منهمكا في لعب الجولف فقال :

ـ ليس عندي وقت لكاسترو !

ـ وغلى الدم في رأس فيدل كاسترو . انه يمثل شعبه فكيف يوصد ايزنهاور بابه في وجه شعب عاش محروما لكي يثري حفنة من الامريكيين ، انه يريد أن يضمن حسن الجوار .. ومعاملة الند .. فهل هكذا يكون الاستهلال .. ورفض الاستقبال ؟ لا لم يكن كاسترو شيوعيا انما الولايات المتحدة هي التي القت به في هذا الخندق ، لا لم يكن كاسترو يساريا متطرفا انما هي معركة الكرامة .. خاضها بعد أن لقي المهانة .. في أوراقه الاولى انه قال « أنا لست شيوعيا .. وحركتنا ليست شيوعية » وفي أوراقه أيضا « الثورة صاحبة مذهب انساني لا يقبل استغلال الرأسمالية ، ولا يقبل قتل الشيوعية للحرية الشخصية » .. ثم هو القائل : الرأسمالية قد تقتل انسانا من الجوع ، والشيوعية قد تقتله بتجريده من حريته .. وثورة كوبا تحاول أن تفي بحاجات الانسان دون أن تضحي بحريته ! الاكثر من هذا أن أمه ـ وهي مارونية لبنانية في أرجح الروايات ـ كانت متدينة ، منها رضع التدين ، وأساتذته وهو صغير يسوعيون تقاه ، ولهذا كان كاسترو يعلق على صدره سلسلة ذهبية عليها صورة مريم العذراء .. وقد تزوج في الكنيسة .. لانه لا يعرف طقوسا غير طقوسها ..

فماذا حدث لكاسترو ؟

اذا كان جفاء دوايت ايزنهاور بداية قضية ، فما اقدمت عليه الحكومة الامريكية من حصار اقتصادي ، ومن حجب السائح ومنع السلاح ، ومن مقاطعة التجارة ورفض سكر كوبا الذى يمثل قضية حياة .. ما أقدمت عليه الولايات المتحدة كان هدفه أذلال كاسترو واعادته جاثيا على قدميه الى الحظيرة الامريكية ، ولكن كاسترو قطع علاقات كوبا مع الولايات المتحدة واتجه شرقا . وداس بقدميه مبدأ مونرو الذى يمنع تدخل أهل نصف الكرة الشرقي فى شئون أهل الكرة الغربى .. وهذا هو المسمى الظريف لمكافحة الشيوعية .. واصبح كاسترو حليفا للأتحاد السوفييتى ، معتنقا لنظرياته السياسية والاقتصادية وهى على حالها الاول قبل التطوير ، بل انه التصق بهذه السمات الاولى من الفكر الشيوعى رغم ان الاتحاد السوفييتى نفسه أعاد النظر فى بعضها .. ملاحقا فى ذلك عددا من دول الكتلة الشرقية ..

فهل حققت ثورة كاسترو ماوعدت به الشعب من رفاهية ؟ هل حررت الأغلبية من استثمار الاقلية ؟ .. هل منعت الانسان من استغلال اخيه الانسان ؟.

الحقيقة أننى كنت شغوفا بتتبع التجربة الكوبيةأعجابا بفيدل كاسترو الذى علق الجرس فى رقبة القط ، وهز البيت الابيض . وأذكر أننى كنت فى الكنغو عام ١٩٦٠ .. عضوا فى الوفد الصحفي الذى غطى أحداث ثورة لومومبا ، وقد شبت المعارك بين لومومبا وكازافوبو . واغلق مطار ليوبولدفيل — وهى كنشاسا الان — وفى هذه الاثناء حملت الينا وكالات الانباء ان الرئيس جمال عبد

الناصر سوف يطير الى نيويورك ليحضر جلسات الامم المتحدة .. ويلقى خطابا أمام الجمعية العمومية ، ويلتقى بعدد من زعماء العالم ومنهم فيدل كاسترو . وعملت المستحيل لاعبر نهر الكنغو الى برازافيل — عاصمة الكنغو الفرنسية في ذلك الحين — وأستقل طائرة من هناك اعود بها الى القاهرة .. ثم أحظى بعضوية الوفد الصحفى المرافق للرئيس جمال عبد الناصر .. ولكنى لم أستطع ورحت أتتبع أنباء الرحلة وبى حـــزن لاننى لا أرى أحداثها رأى العين ، ولا أسجل خواطرى منها بالمعايشة الكاملة .

وكانت علاقة مصر بكوبا علاقة الثائرين بالثائرين .. ولكنى لم أستطع الذهاب الى كوبا لانها — كما تقــول — ليست على طريقنا .. فهى ملقاة على شكل تمساح أخضر فى قلب البحر الكاريبى ، وهى فى الطيران بعد الولايات المتحدة .. حين كانت هذه الاخيرة بعيدة سياسيا .. وبعيدة بتكلفة المشوار الخاص .

ثم تقلبت سياسة كوبا مع مصر من الوئام الى الجفوة غير المعلنة ، وربما كان السبب فى ذلك انتهـاء عهد جمال عبد الناصر .. وبداية عهد أنور السادات الذى كسب تصفيق كوبا لما انتصر على اسرائيل ، وخسر تأييد كوبا لما بدأ مفاوضات السلام .. ذلك لان كاسترو يصادق شلة الاصدقاء للاتحاد السوفييتى فى المنطقة : سـوريا وليبيا واليمن الجنوبى والجزائر .. واثيوبيا .

ولكنى كنت مشوقا لزيارة كوبا .. فليس معنى الجفاء أن نقاطع من يجافينا . وكان حدث لقاء مجموعة عـدم الانحياز فى صيف عام ١٩٧٩ حدثا هاما ، وقد اتخـذت

اجراءات السفر ، وحجزت مقعد الطائرة ، وغرفة الفندق في هافانا .. ولكنى لم أتمكن من الذهاب .. ذلك لان خافقى المعذب خاننى ، فألزمنى الفراش ، وقال لى أطباء مصر :

ـ تطير الى كوبا .. هذا انتحار !

وتابعت أحداث المؤتمر الكبير الذى كانت فيه تحركات نشطة لتجميد عضوية مصر .. وكان من يقودون هذه التحركات يتصورون أن الجفوة بين النظام الكوبى والنظام المصرى كفيلة باذكاء حماسة كاسترو فى هذا الاتجاه . ولكن كاسترو قال فجأة :

ـ لا .. فمصر من الدول المؤسسة لحركة عدم الانحياز . ويجب أن نذكر لها هذا الدور ، يجب الا نقوض الاعمدة الرئيسية فى حركة عدم الانحياز !

وبقيت لهفتى على زيارة كوبا . حتى جاء خريف عام ١٩٨٦ حين تلقيت دعوة من مؤتمر الاوفتا ـ وهو مؤتمر المنظمات السياحية العالمى ـ بصفتى كاتبا سياحيا . وفرحت بالدعوة .. فرحة طفولية ، وسعدت بالاستقبال الهائل الذى أعدته هافانا لوفود المؤتمر الكبير ، وبهرنى مبنى المؤتمرات الذى عرفت انه أستقبل ثلاثين مؤتمرا فى عام واحد .. وأن كاسترو لكى ينشط سياحة المؤتمرات الى هافانا يفاجىء أهل المؤتمر بزيارة يعتبرونها تكريما خاصا ، وقد فعل هذا مع مؤتمر الكتاب السياحيين ـ الفيجيت ـ الذى كان منعقدا قبل مؤتمر الاوفتا .. وظل يحاور الصحفيين لثلاث ساعات .. ففيدل كاسترو

ينتمى الى قبيلة « أبى الكلام » ، ومن خطبه مايتجاوز خمس ساعات ، وقد ضرب الرقم القياسي بخطبة استغرقت تسع ساعات يقولون أن شعر ذقنه طال خلالها !

ولعل الخطابة من أبرز مؤهلات زعامته . لأن له سحره على جماهيره .. سحره الذى قد يمتص غضبهم الصامت أو نقمتهم المستكينة ..

ولكن لماذا الغضب الصامت .. والنقمة المستكينة ؟

هذا السؤال الصعب ستجد محاولة متواضعة للاجابة عليه فى صفحات هذا الكتاب .. الذى حثنى على كتابته ما رأيته من الكآبة فى هافانا ـ دع عنك سهرتنا المتعة فى كوبا كانا .. ملهاهم الذى يضاهى ليدو باريس ـ وحثنى على كتابته ماعانيته وانا أسعى الى الحديث مع كوبية أو كوبى ، فالكوبى يتوجس من الغريب لانه يعرف أنهما ـ اى الكوبى والغريب ـ تحت الرقابة الشديدة . والاتهام الذى يوجه للكوبى فى هذه الحالة هو التخابر مع جهة أجنبية ..

وهكذا يعيش الشعب الكوبى فى ذعر .. وعندهم ما نسميه ماوراء الشمس .. أى أن يقبض على المواطن فيودع فيما وراء الشمس ، ولا يعرف مكانه ولا الذباب الازرق !

وبالعين المجردة تستطيع أن ترى الطوابير أمام محلات البيع . طوابير مختلفة الاطوال والاهداف .. وليس فى كوبا من لايقف فى الطابور الا أعضاء الحزب فهؤلاء هم الطبقة الممتازة .. الطبقة التى طردت الامريكيين ، والراسماليين الكوبيين المتحالفين معهم ، لتحل محلهم . فى كل امتيازاتهم .. وقد أصبح الطابور فى كوبا

موقعا لتكوين الرأى العام .. لأن الهمس فيه متاح .. الهمس فقط ! وكل شيء بالبطاقة .. حتى يتندر الكوبيون بأنهم يتوقعون أن تسرى الطاقة على الهواء .. يوما ما !

فاذا كان هدف ثورة كاسترو هى الانتصار للجياع .. فقد ازداد عددهم !

واذا كان هدف ثورة كاسترو هو تحرير الكوبى .. وانطلاقه .. فقد تنكب الهدف سبيله ..

واخطر مافى الامر أن كاسترو يعيش مذعورا كما يعيش شعب كوبا ، فالمعروف أن الولايات المتحدة ترصد الملايين للتخلص منه ، وقد جرت محاولات بالعشرات لاغتياله ، حتى لم يعد للرجل الاسطورى عنوان ، ويقولون انه لا يبيت ليلتين فى مكان واحد ، وأن عدد الفيلات التى يتنقل بينها لا يقل عن خمسين ، وفى كل فيلا اطقم من خدم وحشم جاهزة لاعداد الطعام .. والسهرة .. لكاسترو وضيوفه .. حتى لو كانوا مائة !

وروى لى صديق هو تاجر استيراد وتصدير انه ذهب الى هافانا ليجرى صفقة فيها . ونزل فى أحد فنادقها الكبرى ــ ولكنه وجد بعد ساعة واحدة من يدعوه الى سيارة سوداء ، سوفيتية الصنع ويقول له :

ــ أنت ضيف الدولة .. ستكون فى فيلات كاسترو!

ولقى الصديق من البذخ فى هذه الفيلات مالم يكن يتصوره ، وكان يريد أن ينجز عمله فى يوم أو آخر .. ولكنهم الحوا عليه ليزور شطآن كوبا .. ويرى رمالها الذهبية ، ويدعو السائحين اليها .. فلما كان الحديث عن الصفقة تعثرت المفاوضات لانه فهم أن عليه ان يضع بضع دولارات الصفقة ــ وهى تقدر بالملايين فى أحد

البنوك الاوربية ، وان حركة السلعة مرتبطة بهـذا الايداع ..

أخونا خاف .. وقد تظاهر بالموافقة . ولكنه .. لم ينفذ الاتفاق !

وقد تكون هذه القصة مما يتكرر فى كثير من دول العالم الثالث ، وقصص بالمئات تسمعها فى هافانا .. فانت تعرف انه كلما كممت الافواه كلما تحينت أى فرصة للحديث ، وفى كوبا زخام من النكت . والنكت تعبير صارخ وضاحك عن غيظ مكبوت ، واحساس بالظلم حبيس ..

على أن التجربة الكوبية ليست خالية من الايجابيات .. فهى كثيرة خاصة فى مجالى التعليم والصحة ... ولكن لاشك فى أن كوبا تعيش فوق بركان هادىء .. أو مجبر على الهدوء .. ولا أحد يعرف متى يثور البركان . ولاشك أيضا فى أن كوبا وان كانت تمساحا فى البحر الكاريبى .. وللتمساح عادة دموع زائفة .. تشبه قطرات الجلسرين التى يضعها الممثلون لكى تتساقط من أعينهم دموعا مؤثرة .. أقول لاشك أن كوبا وان كانت تمساحا فى البحر الكاريبى الا أن التمساح هـذه المرة له دموع حقيقية .

فوميل لبيب

أرض الـــثـــورات .. مـن كـولـمبس الـى كـاسـترو !!

يقولون أن كوبا واحدة من بنات كريستوف كولمبس ، فقد اكتشفها وانبهر بها ، بل لعله انبهر بها اكثر ممـا انبهر بأى موقع آخر فى العالم الجديد الذى كان ينضو عنه طلاسمه امام المكتشف الاسبانى العظيم ويفتح له أبوابه بابا بعد باب ، فى ٢٧ أكتوبر عام ١٤٩٢ بلـغ كريستوف كولمبس ارض كوبا ، وكانت تلك رحلتـه الاولى الى الغرب فى مهمته التى غيرت وجه التاريخ ، فلما القى مراسيه وقف يتطلع الى الجزيرة ويقول : «هذه اجمل أرض يمكن أن تراها عين الانسان » فالاشـجار سوامق ، والاحراش خضر ، والشطآن لازورد ، والثمار على الاشجار شهية باحجام استوائية .. والســكان بوجوههم النحاسية يتحلون بالالوان وريش الطيور وجلود الحيوانات .. وقد كانت كوبا جنتهم .. ولـكن الابيض الغريب حولها الى جحيم تحت أقدامهم .. وقد كتب الاب الكاثوليكى « بارتولمى ده لاس كاساس » . وهـو بطل من أبطال حقوق الانسان .. كتب يقول : لم يعد غريبا أن ترى الجنود يسوقون المواطنين الاصليين فى صفوف ، مربوطين بعضهم الى بعض بالحبال كالخنازير لشنقهم ، وآلرحماء ، هم من قتلوا السكان الاصـليين فورا ، اما غيرهم فكانوا يطلقون عليهم الكلاب المسعورة تنهش من لحومهم ـ وهم مرايا ـ حتى الموت ! ولم

يحدث في تاريخ الاستعمار أن أفنى جيش يغزو شعبا في أرضه مثلما حدث لاهل كوبا فبعد ثلاثين عاما من وصول كولمبس الى كوبا بقي خمسة آلاف من سكانها من واقع ٢٠٠ الف نسمة ، وفي منتصف القرن السادس عشر افنوهم تماما .. ويقولون ان بقايا البقايا موجودة في بعض القرى الجبلية .. وتكاد لا تدرج في احصاء معلوم !

وصار قدر كوبا بعد هذا أن تكون أرض الصراع ، والثورات ، والشهداء الذين يسقطون ، والجياع ! وعدد الثورات التي رصدها التاريخ في القرون الخمسة الماضية — وهي عمر كوبا الحديثة — عدد يتجاوز مجموع الثورات التي شهدتها اوربا في نفس المدة !

في البداية أقام الاسبان وهم يغزون كوبا بمراكبهم الشراعية عند مصبات انهار الجينس والمايابيك والاونيساينال .. غير أن هذه المواقع كانت مزدحمة بالحشرات ، موبوءة بالامراض وخاصة الطاعون ، والاوربي يسميه الموت الاسود ، ويفر منه فرارا ، اختار الاسبان مصب نهر كاسيجواس في الشمال .. ولكن فالاسكوز الحاكم لم يعجبه الموقع .. فخرج على صهوة جواد لينتقي موقعا على هواه .. ووجد خليجا هادئا اسمه خليج جواساباكاو .. فقال : هنا نبني عاصمتنا . وتحت ظلال شجرة جميز — باقية بعد في موقعها — وفي ٢٥ يولية عام ١٥١٩ اجتمع اول مجلس لمؤسسي المدينة التي سموها . سان كريستوبال ده لاهابانا .. لان اجتماعهم صادف عيد القديس كريستوفر ، ولم تكن المدينة مدينة بالمعنى المفهوم اليوم ، بل كانت أشبه بالمستوطنة العسكرية

تتجمع فيها القوات القادمة من أسبانيا وتنطلق منهـا لتغزو فلوريدا ثم أمريكا الشمالية كلها .. بل وتنطلق لتضم الى التاج الاسبانى المكسيك وهندوراس والبهاما وكانت السفن الغازية تعود الى هافانا محملة بخيرات الدول المستعمرة ، وبثروات طائلة سال لها لعاب القراصنة الذين كانوا يعيشون فى البحار فسادا ونهبا ! وشهدت هافانا فى عام ١٥٣٨ هجمة بربرية من القراصنةالفرنسيين الذين هدموا بمدافعهم القوية المبانى الادارية والكنيسة .. ووقفوا على الشاطىء يهددون المدينة بالقتل والسلب مالم تدفع ٦٠٠ كيلو جرام من الذهب .. ودفعت المدينة لتعتق نساءها من ضراوة القراصنة ، وبعدها أمـر هرناندو ده سوتو نائب الملك الاسبانى ، ومكتشـف فلوريدا ـ بناء المبانى المهدمة .. وبناء أول قلعة لتصد الغزو . ويبدو أن هذه القلعة أهلت هافانا لكى تـكون العاصمة .. والعاصمة كانت سنتياجوده كوبا ، وبنيت فيها بعد ذلك قلعة أخرى من «كاستلوده لامورون» وهى قلعة تقف فوق حافة صخرة داخل البحر .. كأنهـا ديدبان ساهر .. وراحت هافانا تتسع كمدينة أسبانية كاملة ، وجعلها طراز الباروك المعمارى متحفا اخاذا . ووسعت الميادين والشوارع الضيقة والمقاهى الشهيرة ـ بالبوديجا ـ كل هذا وراء سور المدينة الذى ارتفـع ليحميها من القراصنة . فى هافانا القديمة ١٧٦٠ مبنى و ٨٦٠ موقعا تاريخيا و ٨٨ تمثالا ، كلها قائمة الى الآن .. وقد أعتبرتها اليونسكو تراثا يجب الانفـاق للحفاظ عليه ..

وأيام كانت هافانا تبنى .. أصدر ملك اسـبانيا

دكريتو – فى ١٦ يوليه عام ١٥٦١ – أمرا لجعلها ملتقى لسفن المستعمرات الاسبانية – على اعتبار انها مفتاح العالم الجديد . وقد شهد عام ١٥٩٢ أكبر تجمع من السفن فيها تكون من ١٠١ سفينة اسبانية و ١١٥ سفينة من المستعمرات – وكانت السفن تبحر فى قوافل .. تتحامى فى بعضها البعض ضد القراصنة .. وكانت السفن تبحر محملة بخيرات المستعمرات التى حولت اسبانيا الى دولة عظمى .. اما اذا عادت السفن فهى تعود محملة بنوعين من البشر : المزيد من الجنود لاحتلال المزيد من الامريكتين .. والرقيق من افريقيا للعمل فى الارض الجديدة .

وقد بدأ استيراد الزنوج لكوبا قبل استيرادهم لامريكا الشمالية ، وقد أعطى شارل الخامس – فى عام ١٥١٧ – لتجار انتورب الحق فى شحن الافارقة الى جزر الانتيل – وكوبا هى كبرى جزر الانتيل فى البحر الكاريبى – وللزنوج على كوبا أياد بيضاء – لا سوداء – فهم من اجتثوا الغابات وزرعوا القصب على ارضها ، وهم من بنوا المدن ، واحترفوا حرف الحدادة والتجارة وقطع الاحجار وهم من شقوا الطرق .. ومدوا خطوط السكك الحديدية . ومثلما كانت هافانا سوق العالم الجديد الرائجة بفضة المكسيك وذهب هندوراس وتوابل الجزر وتبغها وبنها كانت سوق الرقيق وفيها كبار تجاره . ولهذا كانت عين الاستعماريين ترصدها ، فقد هاجمها الفرنسيون بقطع البحرية النظامية عام ١٥٤٤ ، ولكنها كانت اقوى وهاجمها الانجليز بقيادة الجنرال دريك عام ١٥٨٦ ، وارتدوا عنها خاسرين ، واحس التاج الاسبانى بأهميتها

فزاد حصونها . ولكن الانجليز راحوا يقصقصون ماحولها من جزر ويضمونها الى التاج البريطانى ، فاستولوا على جامايكا عام ١٦٥٤ .. ولم يقتربوا من هافانا بعد هذا الانتصار لان كوبا كانت تئن وتبكى موتاها من الحمى الصفراء التى اندلعت فيها .. فأكلت أكثر ممـا أكلت الحروب .

وفى بداية القرن الثامن عشر ازدهرت هافانا بعد أن أصبحت أهم ميناء خارج أسبانيا ، وبنى حاكمها الحضارى مارتينيز ترسانة بحرية ، ومخابىء للسفن ، وجامعة وأول محطة للبريد ، ولكن انجلترا المتربصة بكوبا عاودت الهجوم عليها عام ١٧٦٢ ــ خلال ماسمى بحرب السنوات السبع ــ بأسطول قوامه ٤٤ سفينة تحمل ١٤ الف مقاتل وثلاثة آلاف مدفع . ولكن الاحتلال الانجليزى لم يدم أكثر من عام . ففى ٦ يوليه عام ١٧٦٣ عادت هافانا الى أسبانيا بمقتضى معاهدة فونتنبلو ــ بدلا من فلوريدا ــ وبقيت تحت التاج الاسبانى حتى عام ١٨٩٩ وقد أرسلت أسبانيا ألفين من عبيد سان دومنجو لاعادة بناء ماهدمه الغزو الانجليزى .

عام الكرباج !

وبدأت كوبا تأخذ أوضاعا خاصـة بين مستعمرات التاج الاسبانى . ففى عام ١٧٧٧ أصبح حاكمها جنرالا مستقلا وفى عام ١٧٩٧ اعلنت أنها تعتنق مبدأ أن التجارة حرة . وكان هذا الاعلان مما طلب اصحاب الضياع من تجار التبغ والقصب ، وهم من حركوا الثورة ضد التبعية

الاسبانية ، وكانت جامايكا وهايتى أنشط من كوبا فى انتاج السكر ، فلما زاد الطلب عليه دخلت كوبا الحلبة وتفوقت خاصة بعد أن قامت ثورة عبيد السكر فى هايتى عام ١٧٩١ واخفقت فهرب العمال الى كوبا ، وهرب معهم الفرنسيون برءوس أموالهم ليستثمروها فى كـــوبا . واقرض تجار الرقيق الكوبيون زراع القصب ليتوســعوا فى زراعته .. على حساب الغابات التى كانت تغطى نصف الجزيرة فانحسرت ، وجاءوا بالوف من زنوج افريقيا ، واصبح لكل كوبى ممتلكات من العبيد تتراوح بين اثنين و ٢٦ عبدا فى أوائل القرن التاسع عشر ، ثم زاد نصيبهم بعد ثورة عبيد السكر وحركة الاســـتيراد الجديدة فأصبح لكل كوبى ٨٠ عبدا او مائة .. واصبحت تجارة السكر هى الاولى ، وأصبح سكر كوبا أهم عند أسبانيا من فضة المكسيك وذهب هندوراس !

وتقوى فى صدور عبيد السكر أنهم يقدمون الكثير ويأخذون الفتات ، ويعاملون كالدواب ! فتعاقبت ثوراتهم كانت ثورتهم الاولى عام ١٨١٠ ، وقادها ثائران هما رومان ده لوزوجوكيفى .. وقد أعدا مشروعا بدستور لجمهورية كوبية تسوى بين الابيض والاسود ، ولكن كان هناك من خان حركتهم فنفى بعضهم ، وحكم على الاخرين بعقوبات قاسية ! وبعد عامين تماما كانت هافانا مسرحا لثــورة ثانية استوحت ثورة زنوج هايتى .. أولئك الذين ثاروا من أجل اقامة جمهورية سوداء ، وكان قائد هذه الثورة خوسيه انطونيو ابونتى .. وهو من كان عبدا .. وقد طالب بحل الابعاديات وعقاب ملاك العبيد وتابعيهم .. وقد شنق كل هؤلاء الثوار فى ٩ ابريل عام ١٨١٢ !

ومن الانتفاضات فى كوبا مالم يبلغ حد الثورة المتفجرة .. منها مؤامرات أشهرها ماسمى مؤامرة السلم .. ذلك لان من قبض عليهم فى هذه المؤامرة كانوا يوثقون الى السلالم الخشبية ويعذبون حتى يعترفوا .. وكان التعذيب بالكرباج حتى كانت طرقعته تسمع أثناء الليل وأطراف النهار فى هافانا .. ولهذا سمى عام ١٨٤٤ عام الكرباج !

ولكن الكرباج لم يستطع أن يخمد الثورة فى النفوس بقيت نارا تحت الرماد ، وقد فكر ابايو فى حركة انفصالية ، ولكنه لم يستطع أن ينفذها . وكان حكيما فطن الى سر الفشل فى ثورات العبيد .. فقال : لابد أن يتحرروا قبل أن يستقلوا ... لان ثورات الاحرار تكتسح .. وثورات العبيد كسيحة !

كلهم تلاميذ مارتى !

فى بداية القرن التاسع عشر كان فى كوبا ثلاثة أحزاب تتطلع الى المستقبل من ثلاث زوايا .. كان فيها حزب الاصلاحيين وفلسفتهم ان يأخذوا السلطة تدريجيا من الاسبان ، ويصلحون أحوال كوبا دون اراقة دماء . والحزب الثاني ينادي بالاتحاد الكونفدرالى مع أمريكا الشمالية لان أسبانيا اصبحت من العجز حيث انها لاتستطيع حل مشاكلها الداخلية .. وامريكا الشمالية هى البديل القوى . وغالبية هذا الحزب من ملاك العبيد الذين شجعهم ازدهار وثراء زملائهم من تجار العبيد فى الولايات الجنوبية من أمريكا على هذا الاتجاه والحزب الثالث فيه

أبطال الاستقلال وهم من يريدون الاستقلال الكامل عن أسبانيا . وكان هذا الحزب الاخير أكثر الاحزاب نبضا واندفاعا . وقد تحرك كارلوس مانويل — وهو محام من القاطعة الشرقية فى ١٠ أكتوبر عام ١٨٦٨ حركة مذهلة ، فقد أعلن تحرير العبيد الذين يملكهم فى مصنع سكر لاديمايجوديا ، وأعلن طلب الاستقلال عن أسبانيا او الموت . وأعلن الجمهورية .. واستمر كارلوس قويا مجسدا آمال الفقراء والمعذبين طوال عشر سنوات لم يذق فيها طعم النوم .. لان الاقطاعيين وملاك العبيد كونوا جيشا ليتصدوا له ، ومع أن شعاره المرفوع هو تحرير رقاب العبيد وتحرير كوبا فان هذا الشعار لم يستطع أن يشق له طريقا الى هافانا العاصمة التى ظلت بمنأى عن هذه الثورة .. وحين بدا أن كارلوس يتعرض للهزيمة ثار الطلاب فى جامعة هافانا .. وتصدى الجنود لهم فقتلوا ثمانية من طلاب كلية طب هافانا — لهم نصب تذكارى مقام لتخليدهم فى هافانا القديمة — وقد كان الثوار من أنصار كارلوس يسمون « الماميزيه » . وهى تسمية تحمل تحقيرا ، واذا بهذا التحقير يتحول الى وسام بعد استشهاد طلبة الطب !

واجهضت ثورة كارلوس .. ولكنها حققت نتيجتها الانسانية وان لم تحقق نتيجتها السياسية : حققت تحرير العبيد .

وكانت كوبا على موعد مع ثائر آخر ، ولكن الثائر الجديد كان يسابق الزمن ليثور مع أن الاحداث من حوله كانت تنسج له أسباب ثورته بسرعة طيبة . الثائر الجديد هو أبو الثوار فى كوبا اسمه خوسيه مارتى . من مواليد

هافانا عام ١٨٥٣ ــ وقد حكم عليه بالاشغال الشاقة وهو في السابعة عشر من عمره بسبب أفكاره السياسية . ولكن سجنه كان يحمل الخطر على كل من حوله لان الشاب المتوقد بالوطنية المتأجج الصدر بدواعى الثورة صار يلقن ماعنده لكل من حوله .. فنفوه . وفى المنفى لم يهدأ . أسس أول حزب ثورى . وصار مارتى وهجا .. كان يكتب ويخطب وينظم ، وعاد من المنفى عام ١٨٩٥ مع ماكسيمو جوميز وهبط فى الجهة الشرقية لكوبا ــ خذ بالك ان الجهة الشرقية هى دائما مسرح الثورات ــ وانضم اليه على الفور مناضلان شديدا المراس هما انطونيو ماسيو وموتكادا زعيم الفلاحين . وبدأ الصراع بالسلاح وسقط خوسيه مارتى شهيدا فى معركة روس ريوس فى القاطعة الشرقية . وكان مارتى لا يسعى للاستقلال عن أسبانيا فقط بل يسعى لتحرير كوبا من سطوة اقطاعى السكر لان هؤلاء رفاق اثرياء ولايات الجنوب فى امريكا ــ هم السند الحقيقى للولايات المتحدة فى كوبا . النبوءة مبكرة . ولكنها حشدت عليه الاحقاد والاعداء .. فسقط قتيلا ولكن مبادئه كانت بذورا القيت فوق أرض خصبة .. فاثمرت .. أثمرت كل ثوار كوبا بعد ذلك .. لانهم جميعا يعتبرون أنفسهم تلاميذ مارتى وابناء مارتى ..

وكان المناخ الذى اعد مارتى للثورة هو أيضا من حصاد السكر ! فعندما حدثت أزمة السكر فى الثمانينات والتسعينات من القرن التاسع عشر انهار ثمن السكر .. وكان العلاج يكمن فى ضرورة تبنى وسائل انتاج مبتكرة كالميكنة ومعامل التكرير ، والاهم من هذا احلال الايدى الحرة محل العبيد الذين لم تكن لهم « انتاجية » متفوقة

السفينة اشلاء .. وقتل ٢٢٨ منها . الثوار الكارهون للولايات المتحدة هم من نسفوا مين ، وكانت هذه ذريعة الولايات المتحدة للهجوم على كوبا ، واعلان الحرب على أسبانيا ، فاحتلوا الجزيرة بسهولة ووصفوا أنفسهم بالمحررين .

وقد وصف كاسترو هذه المعركة بعد سبعين عاما من وقوعها « قد استولى الامريكيون على بلدنا دون أن يسمعوا رأينا ، واعتبرونا متفرجين لا اختصاص لنا فى معركة بينهم وبين أسبانيا » !

وفى ١٠ ديسمبر عام ١٨٩٩ وقعت أسبانيا معاهدة سلام مع الولايات المتحدة فى باريس ، وترك الاسبان كوبا للامريكيين بعد ٤٠٠ سنة من الاحتلال . وسقط فى ثورات كوبا فى الفترة من ٢٤ فبراير عام ١٨٩٥ الى ديسمبر ١٨٩٨ مائتا ألف شهيد .. وهم أكثر من شهداء حروب التحرير فى كل أمريكا اللاتينية ..

ومن عجب أن الولايات المتحدة قطفت ثمار الثورات الكوبية على الحكم الاسبانى .. لانها اخذت كوبا دون جهد يذكر ، وكان أول مافعلته الولايات المتحدة أن أعلنت الجمهورية ، ووضعت شرطا سمى فى التاريخ بشرط بلات وهو يعطى لها حق التدخل لحماية استقلال كوبا واستقرار حكومتها .. وحماية ممتلكات وارواح الناس فيها ، على أن اعلان الجمهورية لم يكن الا مغالطة تاريخية فلم يجلس على مقعد حاكم ، أو كرسى مسئول الا من هو موال للولايات المتحدة ، وقد الحق اقتصاد كوبا باقتصاد الولايات المتحدة واستثمر راس المال الامريكى فى كوبا ، وقفز قفزات هائلة فمن ٦٠ مليون دولار كانت مستغلة

نتيجة أحساسهم بالظلم رغم تحرير رقابهم . وكان كل هذا يحتاج لرءوس اموال . أما أسبانيا فهى تعتبر كوبا بقرة حلوب ولا يمكن أن تدرج لها ماتصلح به اقتصادها .

الولايات المتحدة فعلت .. فعينها على كوبا لان السكر سلعة جوهرية . وحين بدأت الولايات المتحدة تسهم فى تطوير الصناعة لتستورد اكثر سكرها من كوبا تنبهت أسبانيا وحاولت فرض جمارك اضافية على السكر المصدر للولايات المتحدة . وغضبت الاخيرة .. وصدر قرار ماكينلى مهددا بوقف أستيراد السكر من كوبا .. مما هدد كوبا بالانهيار .. تلك طعنة نفذت الى أعماق خوسيه مارتى وبدأت تشكل فكره ..

بعد مين سقطت كوبا !

وفى هذا الوقت تنبأ الصحفيون فى الولايات المتحدة بأن معركة يمكن أن تنشب فى هذا الموقع الملتهب . وقد ذهب فردريك رمنجتون الى هافانا كمراسل حربى — لمعركة لم تقع بعد — فلما تجول فى هافانا أبرق لهيرست — رئيس تحريره — يقول له أن كل شىء هادىء فى المدينة وأن بقاءه فيها مضيعة للوقت . فأرسل اليه هيرست برقية قال فيها : « ابق من فضلك . أنت ستقدم الصورة وأنا أقدم الحرب » . ولم يفهم رمنجتون شيئا ، ولكنه بقى ، وفى ١٥ فبراير عام ١٨٩٨ دخلت السفينة الحربية مين ميناء هافانا فى زيارة وداد .. وهبط منها ضباطها ليزوروا المدينة فيما انشغل جنودها وبحارتها بأعمالهم الروتينية ، وفجأة دوى انفجار هائل طارت له

عام ١٩٠٦ الى ١٤٥٠ مليون دولار عام ١٩٢٧ ، وتجاوزت بليوني دولار عام ١٩٥٠ ، وقد صارت كل خيوط الحكم والسطوة في أيدى مجموعة احتكار السكر . وهؤلاء كسبوا من السكر مكاسب طائلة عام ١٩٢٠ عندما كانت اوربا مثخنة بالجراح بعد الحرب العالمية الاولى .. ومن هذا الكسب بدأ أثرياء كوبا — وهم خلطة من المواطنين والامريكيين — فى بناء القصور ، وانشاء الاحياء الفخمة كحى ميراما — الذى يشقه شارع يشبه شارع الشانزليزيه فى باريس ، وعرفت هافانا المياه والكهرباء — بالمناسبة مشروع توصيل المياه للمنازل يسمى « البير » وهى تسمية عربية ، وفى هافانا القديمة أول بئر حفرت للغزاه الاسبان وهى الان معلم سياحى يشرب منه السائحون كوب الماء بخمس سنتافو ، اى حوالى خمسة قروش !— وبدأت كوبا ترى السيارات .. فى نفس الوقت الذى تراها فيه مدن لوس انجيلوس وسان فرنسيسكو وشيكاغو ونيويورك ..

قد حرص الامريكيون على ان يجعلوا من هافانا قطعة من امريكا .. وكان كل مليونير امريكى قادرا على ان يزود اى ضيعة من ضياعه بأحدث مافى العصر من حضارة وحتى من لم يكونوا من المحترفين لزراعة القصب وصناعة السكر مثل المليونير الامريكى ديبونت . كانوا يسمعون عن مباهج كوبا فيغريهم هذا بأن يبنوا فيها قصور الراحة والاستجمام . وديبونت مثلا أرسل وفدا من رجاله الى منطقة فاراديرو — على بعد ١٥٠ كيلومترا من هافانا — واشترى هناك ارضا بالوف الافدنة .. مقابل بضعة الوف من الدولارات .. وبنى قصوره ، ومرابع لخيله ،

وشواطئه .. ثم راح يبيع أطراف الارض بمئات اضعاف ما اشتراها به ..

حكومة المائة يوم

وفى عام ١٩٣٣ حدث مايؤرق مضاجع الامريكيين فى كوبا .. رغم أنه كان مسبوقا بمؤشرات عليه ..

ففى عام ١٩٢٣ عقد انطونيو ميلا أول مؤتمر للطلاب فى هافانا ، واعلن الحرب على الامبريالية لصالح الثورة الاجتماعية ــ على غرار ثورة روسيا عام ١٩١٧ ــ وطالب بفتح الجامعات للشعب ، وفى عام ١٩٢٥ وبالاتفاق مع كارلوس بالينو ــ وهو احد أصدقاء خوسيه مارتي تاسس الحزب الشيوعى الكوبى ، ولكن الحزب أصبح غير شرعى عندما تولى « ميكادو » السلطة . توسع الحــزب فى نشاطه السرى ، وتعلم من تجارب الآخرين فتقوى حين ضم المناوئين للفاشية ، ودعاة الاصلاح وسمي نفســه حزب الشعب الاشتراكى ، وفى عام ١٩٣٣ حدث مايؤرق الأمريكيين لان الأزمة العالمية امتدت بقبضة قوية لتهــز أقتصاد كوبا . وفى كوبا كان الغنى يزداد غني والفقير يتمرغ فى فقره ، وقد نظمت الاحزاب الكوبية اضرابا عاما زلزل الحكومة .. ونشبت الحــرب الأهلية فى الشوارع ففر ميكادو رئيس الجمهورية الى كندا ، وشكل الدكتور جراوسان مارتن حكومة ثورية مؤقتة حــكمت كوبا لمائة يوم .. ولكن الجهاز الموالى للولايات المتحدة لم يترك الحكومة المؤقتة لتستمر سرعان ماجمع قوته ، وشدد قبضته ، وافترس الثورة .

ولكنها كانت ثورة .. وثورة صاخبة فى عداد الثورات التى شهدتها كوبا .

على أن حياة البذخ الامريكية بين ملاهى الليل واندية القمار التى امتلئت بها هافانا .. بل بين مواخير الرقيق الابيض حتى لو كانت البضاعة أبنوسية .. ومواقع سطوة المافيا كل هذه حركت الاحقاد فى الصدور . ومثلما كانت للمافيا قوة الاملاء والتحكم فى مدن أمريكية مثل شيكاغو ونيويورك كانت لها سيطرة على مجريات أمور كثيرة فى كوبا . ومنها مثلا أنها أنشأت مصانع للخمور فى الوقت الذى حرمت فيه هذه الخمور فى الولايات المتحدة ، وقد كسبت المافيا الملايين من تهريب الخمور الكوبية الى الشواطىء الامريكية .. لتدخل البلاد فى مغامرات شاهدناها فى الافلام الأمريكية ! كان الشعب الكوبى يرى هذا ويضمره حقدا . ويسمع أنغام السامبا والرومبا تعزف فى مواقع العبث الامريكى فيتصورها طبولا تدق للثورة القادمة .. ان حفنة من الاقطاعيين الغرباء والمحليين سيتاثرون بكل شىء .. والشعب يتضور جوعا ..

وفى المقاطعة الشرقية ـ وهى مشتل الثورات ، ووطن تفجيرها ـ كان ٢٠٠ الف فلاح وعائلاتهم يعملون فوق أرض تملكها شركة الفاكهة المتحدة ، وشركة الهند الغربية ـ وهما شركتان امريكيتان ـ ولا يملك فلاح واحد شبرا من الارض فى هذه المقاطعة . بل ولكى يجرى تصريف فواكه كاليفورنيا حرم على كوبا أن تزرع بعض انواع الفواكه .. وبقيت مساحات هائلة من الارض فى هذه المقاطعة الشرقية دون زراعة ـ وتقدر بـ ٣٠٠ الف هكتار !

وصحيح أن الثورات تفشل لان حكومة كوبا فى أيدى

من يساندون السياسة الامريكية ، ولأن الولايات المتحدة تتحكم في كل شيء . ولكن احساس الظلم لايكترث لفشل ثورة .. ولا عشر ثورات . انه يغور ويترصد . انه يبيت بياتا شتويا لعام وربما لعشرين ولكنه لا يموت ، وقد لا يبدو على السطح ولكنه في الاعماق يمور ويفور .

مسار الاحداث بعد قرار ميكادو الى كنـــدا أن اجتمعت الاحزاب واختارت كارلوس سافيدس رئيســا للجمهورية . فعطل الدستور ولم يرض الجيش عن هذا الاختيار فقام بانقلاب عسكري جاء بكارلوس منديتا ــ وقد اعترفت به الولايات المتحدة حتى لاتصطدم بقــــوة الجيش ــ ولكن الحاكم الفعلي لم يكن منديتا .. بل كان باتستا رئيس أركان الجيش الذى فاز في انتخابات عام ١٩٤٠ وأقام علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي بعد انتخابه .. وفي انتخابات عام ١٩٤٨ اختير كارلوس ساكاروس رئيسا للجمهورية فانحاز لليسار . وهنا قام باتستا بانقلاب عسكرى ضده عام ١٩٥٢ ، وحكم البلاد حكما ديكتاتوريا .. سامها به العذاب .. واجـــرى انتخابات مزيفة عام ١٩٥٤ ليظل في الحكم الى عــام ١٩٥٩ ..

وبقسوة باتستا وجبروته ، وبديكتاتورية باتســـتا ودمويته ضربت الامثال ، وفي عهد الطغاة من هذا النوع تكون انتفاضات الشعوب ساحقة ماحقة .. وفي عهــد باتستا قامت ثورة كاسترو !

لم يكن كاسترو

شيوعيا .. ولاحركته !!

عثر موظف فى ارشيف الخارجية الأمريكية على رسالة فى محفوظات الارشيف القومى الامريكى من فيدل كاسترو الى الرئيس روزفلت .. وأعاد الموظف قراءة الرسالة بالدهشة البالغة خاصة وهو يقرأ فى ذيلها أن الرئيس الامريكى أمر بتحويلها - وكان هذا عام ١٩٣٦ - الى السفير الامريكى فى كوبا .. وبحث الموظف عن رد على الرسالة او خطاب من السفير الامريكى فلم يجد .

يقول فيدل للرئيس الامريكى فى الرسالة انه يطلب اليه أن يدفع عشرة دولارات ليبوح له بأماكن وجود مناجم غنية بالحديد فى منطقة مايارى شرقى كوبا .. فبهذا الحديد تستطيع أمريكا أن تصنع كل سفنها ! وكان هذا النبش فى الاوراق مصادفة بحتة بعد أن لمع نجم كاسترو فى كوبا . فحول الموظف الخطاب الى خبراء الخطوط ليضاهوه بخط حديث لكاسترو .. ذلك لأن الثابت انه كتب خطابه وهو فى العاشرة من عمره .. وجاءت النتيجة بالايجاب !

وسواء كانت الرواية صحيحة ام زائفة فان الروايات التى احاطت بكاسترو منذ قاد ثورته تحصى بالعشرات . والثوابت فيها انه ولد لأب يدعى انجلو كان يملك مزرعة

للتعصب في القاطعة الشرقية . وهي مزرعة انتزعها من قلب الغابة بعرقه وكفاحه . وهذه النشأة وحدها كافية لتكذيب الخطاب السابق .. فالأب ميسور حتى انه دفع بابنه الى دراسة على أيدى الآباء اليسوعيين ــ الجزويت ــ فأحب منهم قراءة التاريخ ، وأحب فى صباه تربية ديوك المعارك .. وهي رياضة منتشرة فى أمريكا اللاتينية فتعلم من هذه الرياضة أن الجائع الهزيل يمكن أن ينتصر على السمين المترهل .. لأن الديكة ماكانت لتنتصر فى المعارك الا بعد أن تترك للجوع . وسرعان ما انصرف عن هذه الرياضة لرقة قلبه ! وامه لبنانية .. وقد جاءت رواية من لبنان تقول انها طرابلسية وان اسمها هو لينا روس . والعادة عند من يتحدثون الاسبانية انهم يكتبون اسم الأم بعد اسم الأب .. ولهذا فاسمه فيدل كاسترو روس .. ولينا من مواليد حى البغطاسية .. بالضبط من شارع التربيعة فى طرابلس . وجده اسكندر الروس عاش في بيروت .. ثم القاهرة .. ثم هاجر الى أمريكا اللاتينية ، ويقال أن الروس ليست اسما بل كنية أصلا لان اجداده جاءوا من روسيا .. هذه رواية ، والرواية الثانية انهم أسرة تتاجر برءوس الغنم ، والتى حددت مسار رحلته من طرابلس الى القاهرة الى المكسيك ثم كوبا هى السيدة اناستاسيا زوجة حنا الروس شقيق اسكندر ابى لينا . وقد قالت أن هذه الهجرة تمت عام ١٩١٣ .. وكانت لينا فتاة يافعة عندما رحل بها الأب مع زوجته وولديه . فلما سألها مندوبو وكالات الانباء العالمية : من اين جاء اسم لينا ؟ قالت اسمها الحقيقى انجيلينا .. ولكننا كنا ندللها فنناديها لينا ! وفى هذا

الوقت ـ عام ١٩٥٩ ـ واسم كاسترو على كل لسان :
اصطفت أسرة الروس فى طرابلس امام عدسات المصورين
باعتبارهم جذور الزعيم لأمه .

وعقد خوان جارسيا القائم بأعمال كوبا فى بيروت مؤتمراً صحفيا قال فيه أنه لايستبعد الرواية . وأن كوبا يعيش فيها عشرون الف لبنانى .

وفيدل كاسترو من مواليد عام ١٩٢٦ .. ومن مجريات الامور حوله تعلم أن زراعة القصب تخضع للاحتكارات . وان ثروات البلاد كلها تكاد تخضع للاحتكارات .. وأحب فيدل القانون . من منطلق حب تلقائى للعدالة ، فالتحق بكلية الحقوق بجامعة هافانا ، وانتقل ليعيش فى العاصمة التى كانت ماخورا للامريكيين ويقال أنه كان يحب العدالة لكل البشر ـ وليس للكوبى وحده ـ بدليل أنه وهو بعد طالب اشترك فى محاولة لقلب تروهيو حاكم الدومنيكان .. وعند العودة فى قارب الثوار المتطوعين حاصر اسطول باتستا القارب ليقضى على من فيه باعتبارهم بذور الشر .. فقفز فيدل من القارب وسبح فى الماء عدة أميال ، ويقال أيضا ان باتستا اصدر عليه حكما بالاعدام ، فتوسط له رجل دين قال ان مافعله فيدل ورفاقه تصرفات صبيانية يجب الا تأخذ حجما اكبر من حجمها . وفى عام ١٩٥٠ حصل فيدل كاسترو على ليسانس الحقوق . ثم حصل على دراسات عليا ودكتوراه فى العلوم الاجتماعية والعلاقات الدولية .. كأنما يعد نفسه أعدادا اكاديميا كاملا للدور المسطور على لوح الغيب وقد رشحه الحزب الارثوذكسى المعارض لباتستا للبرلمان ولكن باتستا الغى الانتخابات ، فعاد فيدل الى المقاطعة

الشرقية وفي صدره مرجل غضب ، وبدأ يتصل بمن يتوسم فيهم مثل ثوريته ، ولما اكتملت له قوة صغيرة اندفع بها الى حامية المونكادا مترسما كل خطى الثوار فى القاطعة الشرقية . ولكنه اخفق ، وسقط أكثر رفاقه شهداء ، وحكم على فيدل بالسجن وظل به الى عام ١٩٥٥ حين نفي الى المكسيك ، ومثلما فعل خوسيه مارتى فى المكسيك حين نظم ورتب للثورة فعل فيدل ، ففى المكسيك التقي بشى جيفارا الارجنتينى ، وهو شيوعى يعشق الحرية وصار فيدل مع شقيقيه راؤول وجيفارا ثلاثيا من فولاذ ، وقد قاد هذا الثلاثى ٨٢ مناضلا فى قارب أطلقوا عليه اسم « جرانما » ـ وهذا الاسم صار مقدسا فى الثورة الكوبية وهو يطلق على أكبر صحف كوبا .. وعلى عديد من المشروعات .. ورسا القارب الى الشاطىء الشرقى لكوبا عند فريدبليك فاذا به يواجه بقوات باتستا التى كانت فى انتظاره .. ونشبت معركة ضارية فر على اثرها من بقى على قيد الحياة الى جبال سييرا مايسترا .. ومن هناك أشعلوا الثورة فى صدور الفلاحين الذين تجشموا الكثير من اجل تزويد الثوار بالطعام والسلاح ثم تركوا بيوتهم وأولادهم لينضموا الى صفوف الثوار .. وانتشرت روح الثورة من القاطعة الشرقية الى كل المقاطعات ، وقاد فيدل معركة سانتاكلارا ضد قوات الحكومة .. وكانت المعركة فاصلة لان باتستا احس بأن الطريق الى هافانا صار مفتوحا فترك حفل رأس السنة . وفر الى الولايات المتحدة تاركا السلطة لقائد الجيش .. وكان فيدل يتقدم الى سنتياجوده كوبا بقواته التى سماها قوات خوسيه مارتى

فبلغها يوم ٢ يناير عام ١٩٥٩ ودخلها وسط تحية الشعب وهتافه ، وفى صباح ٨ يناير دخل هافانا على رأس جيش الثورة .. وكان جيفارا قد استولى على قلعة لاكابانا وانهى مقاومة قوات باتستا التى اجتاحها الرعب .

لا وقت لكاسترو !

وعاشت هافانا اياما تهتف لفيدل كاسترو وصحبه من الثوار .. وجيشه من الفلاحين . وكان شعار الثورة هو تحرير كوبا من استغلال الاقلية للاكثرية .. وانهاء استغلال الانسان للانسان !

ولم تكن الولايات المتحدة الامريكية سعيدة بما حدث ولهذا قابلته بالرفض او الازدراء ، ويقال أن فيدل كاسترو فكر أول مافكر فى أن يذهب الى واشنطن ليلتقى بالرئيس الامريكى دوايت ايزنهاور .. وحين عرف آيزنهاور ذلك وكان يلعب الجولف قال بصلف أمريكى :

— ((ليس عندى وقت لكاسترو !))

واسرها كاسترو فى نفسه ، ولعل هذا الجفاء هو ماجعله يحس الى الاعماق كيف ينظر الامريكيون الى كوبا وشعبها ، فهى فناؤهم الخلفى فكيف يجرؤ واحد من عبيد الفناء الخلفى على طلب مقابلة سيد البيت الابيض.!!
من المحللين السياسيين من يعتبر زيارة كاسترو لواشنطن

فى ربيع عام ١٩٥٩ نقطة البداية فى تحوله الى الشيوعية لانه قبل ذلك لم يكن !

على أن تسلسل الأحداث بعد ذلك يؤكد حقيقة أن المسلك الامريكى مع كاسترو هو ماجعله شيوعيا اكثر من اي عوامل أخرى ، ففى بداية ثورته قال فيدل كاسترو « أنا لست شيوعيا ، وحركتنا ليست شيوعية ، ولكننا فى حاجة الى أن نعلن كل يوم أننا لسنا شيوعيين لندافع عن حركتنا امام العالم الخارجى ، وقال أيضا : « الثورة صاحبة مذهب انسانى لا يقبل استغلال الراسمالية ولا يقبل قتل الشيوعية للحرية الشخصية » .. وهو من قال : « الرأسمالية قد تقتل انسانا من الجوع ، والشيوعية قد تقتله بتجريده من حريته ، وثورة كوبا تحاول أن تفى بحاجات الانسان دون أن تضحى بحريته » .

والواقع أن الحزب الشيوعى الكوبى لم يشترك فى حرب التحرير ، ولا قام بدور فيها ، صحيح أن رأؤول كاسترو ـ شقيق فيدل ـ شيوعى ، ولكنه انضم الى شقيقه بالدم لا العقيدة السياسية ، وصحيح أن جيفارا شيوعى .. ولكن النظرة اليه على أنه أرجنتينى محترف ثورات .. يعد لها المسرح ، ويرفع عنها الستار ، وينتزع لها النجاح ثم قد يختفى فجأة ليظهر فى دولة أخرى .. جيفارا نوع خاص من البشر ، ولأن الحزب الشيوعى لم يشترك فى الثورة هاجمت صحيفة الثورة ـ الريفلسيون ـ صحيفة هوى الشيوعية ، بعد أن سمح لها كاسترو بالصدور ، وتدخل كاسترو ليوقف المهاترة ، وقال أنه

يؤثر أن يأخذ كل فريق حقه في التعبير والا فماذا يكون الفرق بين كاسترو وباتستا ؟ !

وامعانا فى التدليل على ان فيدل كاسترو لم يكن شيوعيا فانه اصطدم بمانويل اوروينا رئيس الجمهورية الذى عين بعد فرار باتستا لارضاء الثوار . لقد اراد أوروينا حذف كلمة الله من الدستور الكوبى لانها تتكرر فى معظم المواد فقال له فيدل : ان بقاء كلمة الله فى الدستور لا يعنى أننا ثورة دينية ، ولكن حذفها يعنى أننا ثورة ملحدة .. ونحن ثوار مؤمنون » ..

أمه كانت متدينة ، وقد أرست فيه نوازع التدين ، وأساتذته وهو صغير يسوعيون تقاة ، وقد كان فيدل يعلق على صدره سلسلة ذهبية عليها صورة لمريم العذراء وقد تزوج فى الكنيسة . ولكن حز فى نفسه أن زوجته طلبت الطلاق منه وهو فى غياهب السجن .. لما حكم عليه باتستا بالسجن !

واتجه كاسترو ـ شرقا !

كان من الاجراءات الاولى التى أتخذها كاسترو لتحرير كوبا من استغلال المستغلين أن أمم الاحتكارات واعلن أن البنوك الاجنبية أصبحت كوبية ، وهذه خبطات تصيب فى الصميم رءوس الاموال الامريكية والمصالح الامريكية فى كوبا ، وقد احتجت الحكومة الامريكية على ذلك ، وذهب السفير الامريكى فى هافانا ليلتقى بكاسترو .. فطال انتظاره ... وفهم أن كاسترو لن يقابله ..

وكان رد فعل الولايات المتحدة عنيفا وعصبيا ..

اعلنت انها لن تقدم القمح لكوبا ، ولن تقدم البترول ، واعلنت انها لن تعطيها سلاحا ، ثم . . ثم انزلت بها الضربة القاصمة حين قررت الا تشترى السكر من كوبا . ومعنى هذا أن تنهار كوبا اقتصاديا ، وتركع على قدميها ، ولكن فيدل كاسترو رفض هذا الهوان ، وتقدم الاتحاد السوفيتى ليساعد كوبا فقبلت المساعدة ، وبلغت الامور الذروة عندما زار جيفارا موسكو فى ١٩ ديسمبر ١٩٦٠ والتقى ميكويان نائب رئيس الوزراء ، وصدر عن اللقاء بيان عقب على سلسلة الاتفاقيات التجارية والمساعدات الفنية والثقافية قائلا : « ان الجانبين بحثا المشكلات المتصلة بالموقف الدولى الراهن ، واكدا اتفاقهما فى الراى نحو مشكلات البشرية الاساسية الحالية ، وقد وافق الجانب الكوبى على أن الاتحاد السوفييتى هو اقوى دولة فى العالم ، وعلى أن كل اقتراح وسياسة سوفييتية تمثل مساهمة عظيمة فى السلام العالمى . وفى مقابل الموافقة التامة على الزعامة السوفييتية حصلت كوبا على تعهدات بالمعونة الفنيــــة السوفييتية كما أن الاتحاد السوفييتى ابدى الرغبـــة فى أن يقدم لكوبا مساعدة تامة للاحتفاظ باستقلالها ضد اى عدوان يقع عليها دون اى استفزاز من جانبها » .

ويكاد البيان المشترك يبلغ حد الحلف بين كـــوبا والاتحاد السوفيتى .

وقطعت حكومة كوبا علاقاتها مع الحكومة الامريــكية بعد أن اعلنت هذه الاخيرة صراحة بحصارها الاقتصادى حول كوبا ، فمنعت عنها السائحين ، وفتحت ابوابهـــا للفارين منها بأموالهم ، وبدأت تنظر لما يحدث فى كوبا على أنه امر خطير ، وحدث مزلزل لانه أول خرق لمبدأ

مونرو الذى يمنع نصف الكرة الشرقى من التدخل في شئون نصف الكرة الغربى .. اكثر من هذا أن التدخل السوفييتى لم يقتصر على كوبا وحدها .. لان السوفييت خططوا لتكون كوبا راس الحربة .. او الجسر الاحمر الى دول أمريكا اللاتينية .. وهى الدول التى تعتبرها الولايات المتحدة حديقتها الخلفية ، أو كومنولث بغير تسمية . كوبا وهى تفتح ابوابها للاتحاد السوفييتى تثقب الجدار الامريكى . ولم يكن فيدل كاسترو يخفى نواياه فى أمريكا اللاتينية فقد قال : « اننا نعد بأن نواصل السعى لنجعل من هذه الامة مثالا يستطيع أن ينشر الثورة الكوبية فى جميع ارجاء أمريكا الجنوبية .. واذا شاءوا اتهامنا بأننا نريد نشر الثورة فى جميع انحاء أمريكا فليفعلوا ذلك » .

وبدأت سفارات كوبا فى أمريكا الجنوبية تتعاون مع السفارات الشيوعية لتصدير الثورة الى هذه الدول فقد أيد الغزوات العسكرية ضد بناما ، ونيكاراجوا ، وجمهورية الدومينكان ، وهايتى ، وقد فشلت هذه العمليات ، ولكن كاسترو استبدلها باحتضان الشيوعيين من هذه الدول ، والتحريض على اثارة الجماهير وبث الدعايات المهيجة ، والاشتراك فى الاعمال السياسية التى تتجاوز الواجبات الدبلوماسية العادية . فقد ضبطت فى ليما عاصمة بيرو أوراق تدل على نشاط كوبى واسع فى هذه الدولة . ونشرت حكومة السلفادور أن سفارة كوبا تمول الطلبة الشيوعيين الذين يتآمرون لاسقاط الحكومة .. بل ان فيدل كاسترو انشأ محطة اذاعة قوية لتعزيز دعاياتها المناهضة لدول أمريكا اللاتينية .

وفى اضطرابات كراكاس ضبطت أجهزة ارسال لاسلكية يحملها بعض الكوبيين الذين يعيشون فى المدينة ، وبدأت اذاعة كوبا القوية فى كيل الاتهامات وتوزيع السباب على رؤساء جمهوريات أمريكا اللاتينية ، فاليساندرى هو مفسد ايمان الشعب الشيلى ، وكامارجو رئيس كولومبيا هو الصديق المخلص للاستعمار المستغل ، ولوبيزماتيوز هو خائن ثورة المكسيك بل والرئيس ايزنهاور مقعد .. وطفل .

وقطعت بعض الدول فى أمريكا اللاتينية علاقاتها الدبلوماسية مع كوبا ، وطردت دول أخرى سفراء كوبا منها ، ولم يبد فيدل كاسترو أى أسف على مايحدث لانه قال عن منظمة الدول الامريكية : « أنا لا أؤمن بهذه المنظمة ، انها لا تفعل شيئا ، وهى لا تعدو أن تكون اكذوبة » .. وكانت كوبا قد وقعت فى اغسطس عام ١٩٥٩ على اعلان سانتياجو بما نص عليه من حرية الانتخابات ، وحقوق الانسان ، وحرية نشر الانباء وحرية الرأى والتعاون بين دول القارة الامريكية ، ولكن فيدل كاسترو لم يكترث لهذه الاتفاقية .. ثم صرح بأن كوبا لم توقع اتفاقية ريو التى تنظم التعاون الدفاعى بين دول القارة .

واشعلت الولايات المتحدة النار بين كوبا ودول امريكا اللاتينية ، فقد حضت الاخيرة على الاجتماع فى سان خوسيه بكوستاريكا لادانة التهديد بالتدخل فى شئون نصف الكرة الغربى من اية جمهورية امريكية . ومن الاتحاد السوفييتى والصين الشعبية ، وأكدت أن نظام رابطة الدول اللاتينية يتعارض مع اية صورة من صور

الاستبداد ، وان الديمقراطية هي سبيل العدالة الاجتماعية ، وهي لا تتحقق الا اذا التزمت جميع الجمهوريات الامريكية بنصوص اعلان سانتياجو . واعتبرت كوبا اعلان سان خوسيه هجوما مباشرا عليها فانشبت اظافرها في دول امريكا اللاتينية . وحاولت الولايات المتحدة أن تقوم بدور الوسيط ، بامل أن تقطع الطريق على التدفق الشيوعى ! . وبمنى أن تسد الثغرة الشيوعية التى بدأت تتسع وتهدد . ولكن فيدل كاسترو ـ الجريح من امريكا أولا ـ رفض ، ولعن سنبسفيل كل التحالفات من كل نوع بين دول امريكا اللاتينية .

من هاجم ومن هزم !

فى أبريل عام ١٩٦١ .. حدث عدوان امريكى سافر على ثورة كاسترو .. وان كان قد وضع على وجهه قناعا كوبيا . فقد كان جون فيتز جرآلد كنيدى قد تولى الحكم ، وبروح الشباب المندفع راى ان فيدل يجب أن يوقف عند حده ، ويسقط . لانه ثقب الجدار ، وفتح طريقا للدب الروسى يقبل على نصف الكرة الغربى تحت أعلام شرعية ، والعقاب الوحيد له هو التخلص منه ، ولهذا رصدت الحكومة الامريكية المال والسلاح اللازمين لمجموعات الفارين من الثورة الكوبية ، ومن أصحاب المصلحة فى اختفاء كاسترو ، وتولت القوات الامريكية تدريبهم على القتال ، وهاجمت هذه القوات كوبا عند خليج الخنازير .. وتصدت قوات فيدل كاسترو لقوات

الغزو فالحقت بها هزيمة منكرة .. ورغم أن المعلن أن الكوبيين هم من هاجموا فان الواقع أن الامريكيين هم من هزموا ..

واحس فيدل كاسترو أن الولايات المتحدة تتربص به ، وبدأ يحيط تحركاته بالغموض والسرية ، لانه عرف أن المخابرات الامريكية يمكن أن ترصد الملايين للتخلص منه خاصة بعد لطمة خليج الخنازير ، وتناسى الامريكيون انهم من ضغطوا على أعصاب كاسترو وحاصروها فاقلت من الحصار بالاتجاه شرقا ويسارا .. وقد كان كاسترو يحتاج الى وقت طويل ليقنع السوفييت ـ وهم عادة يقتنعون على مهل ـ ولكن الامريكيين بحماقتهم اختزلوا هذا الوقت . وفي ٣ ديسمبر عام ١٩٦١ . بدأ كاسترو خطابا ـ من خطاباته النارية ـ بعد منتصف الليل ، انتهى منه قبل الفجر واعلن فيه انه اعتنق الماركسية اللينينية ، وقال انه اعتنقها بعد الوصول الى الحكم ، وانه ضد عبادة الفرد . وانه مؤمن بالقيادة الجماعية ، وانه سيؤلف حزبا يعتمد على الكيف لا على الكم .. بمعنى انه لن يهتم بكثرة عدد أعضاء الحزب في أول الامر .. انما سيهتم بان يكونوا من الدارسين للشيوعية ، حتى يستطيعوا أن يبشروا بها » .

وهكذا بوضوح ودون مواربة ، القى فيدل كاسترو القفاز في وجه الولايات المتحدة .. وبعد ذلك بشهر واحد ـ في يناير عام ١٩٦٢ ـ طردته منظمة الدول الامريكية من عضويتها ..

وبدات ازمة الصواريخ !

وبدأ كاسترو ينقل كوبا الى الشيوعية ، ادار شقيقه راؤول شئون الوزارة نيابة عن قوات الثورة المسلحة ، وشغل صديقه الميجور راميرو مينندیز - رفيقه في رحلته الى الاتحاد السوفييتي - منصب رئيس المخابرات العسكرية . وتولى جيفارا منصبي وزير الصناعة والتخطيط الاقتصادي ، وراس الميجور انطونيو جيمينز المعهد القومي للاصلاح الزراعي - وهو من يتحكم في شئون الريف - وهو شيوعي معروف .. واستتبع هذا شل كل نشاط حزبي آخر . وبدأ اصدار القوانين لحماية الثورة وأنشاء المحاكم العسكرية التي تصدر الاحكام بالجملة .. وبالسرعة الثورية . وطهر فيدل صفوف العمال من الزعامات اليمينية - حتى ولو كانت تنتمي لحركته المسماة حركة ٢٦ يوليه - وبدات احكام الاعدام بثلاثة عمال كهرباء اشتبه في أنهم يدبرون التخريب . فلما تظاهرت اسرهم احتجاجاً تصدت لهم قوة ثورية فتكت بهم ..

وكانت اعمق البصمات الشيوعية على التعليم في المدارس ، والجامعات ، وقد فر عدد كبير من اساتذة الجامعات ممن رفضوا الايديولوجية الجديدة ، ونشر فرمين بينادو الأستاذ بجامعة أورينتي - الجامعة الشرقية - بيانا جاء فيه : « أننا في ميدان السياسة الداخلية ندين فيدل كاسترو باعتباره خائنا للثورة التي ساعدت هذه الجامعة على تنظيمها وفوزها ، فقد عمدت حكومة كاسترو الى سحق أهداف الحرية التامة ، وحقوق

الانسان ، والنظام الدستورى ، وهى الاهداف التى تبلورت فى حركة ٢٦ يوليه . وذلك فى خيانة سافرة لذكرى شهدائنا ، ونعلن فى ميدان الحياة الجامعية أن فيدل كاسترو خائن لاستقلال الجامعة الذاتى ، وهو الاستقلال الذى دافع عنه حتى الموت فريق من الطلبة الشهداء ... اننا نستنكر الاخضاع المنظم لاغراض البحوث العلمية فى الجامعات .. للغرض الذى يهدف الى دعم طغيان كاسترو المطلق وبقائه فى السلطة » .

وتغلغلت الشيوعية فى الحياة اليومية للشعب الكوبى ، واصبح النظام الجديد أمراً واقعاً لا سبيل الى تغييره ، وكلما أمعنت الولايات المتحدة فى أحكام الحصار الاقتصادى حول كوبا ، وكلما زادت فى كراهيتها وبغضها لكاسترو ، ازداد الاخير ارتماء فى احضان السوفييت ، وازداد السوفييت امعانا فى انتهاز الفرصة السانحة ، واقتحام الابواب المفتوحة .. فلم يعد مايصل من الاتحاد السوفييتى الى كوبا البترول والقمح .. وما اليهما .. بل جاءت الصواريخ !

وهنا دقت أجراس الانذار بالخطر .

ما الذى حدث ، ان الهاربين من كوبا تباعا اكدوا للمخابرات الامريكية ان ٧٥ سفينة سوفييتية نقلت شحنات السلاح ومقاتلات الميج الى كوبا ، بل ان من هذه الاسلحة أسلحة نووية . وقد ارسل كنيدى طائرات الاستطلاع لتتأكد من هذه المعلومات ، فرصدت الطائرات ثمانى قواعد للصواريخ ، فهل هى للدفاع الجوى ، أم أنها لحمى قواعد صاروخية ذات رءوس نووية ، وغضب كنيدى ، ونقل دوبرتين سفير الاتحاد السوفييتى عن

خروشوف أن الاتحاد السوفييتى لا يريد أن يستبب أي متاعب لامريكا فى عام الانتخابات .. فقال كنيدى وهو يدق المائدة البيضاوية بقبضة يده : « ان من شأن تزويد كوبا بالصواريخ أوخم العواقب » وكان أمامه وهو يقول هـذا تصريح خروشوف ــ فى ٩ يوليه عام ١٩٦٠ ــ الذى قال فيه : « سوف نفعل كل مانستطيع لتأييد كوبا فى كفاحها واننى أقول على سبيل المجاز أن رجال المدفعية السوفييتية يستطيعون ــ فى حالة الضرورة ــ أن يؤيدوا بصواريخهم الشعب الكوبى .. اذا تجرأت قوات العدوان فى البنتاجون على التدخل ضد كوبا » .

غير أن من الامريكيين من صدقوا تأكيدات دوبرنين المنقولة عن خروشوف ، وكانت وجهة نظر هؤلاء أن الاتحاد السوفييتى لم يضع مدافعه ذات الرءوس النووية فى أوربا الشرقية .. فكيف يضعها فى كوبا ويتعـــرض لاستفزاز الولايات المتحدة ذات التفوق ، بل ويثير رغبتها فى الانتقام .. تلك التى تضمرها منذ فشل غزو خليج الخنازير ..

وفى الحوار الدائر فى البيت الأبيض قال فــريق آخر ان الاتحاد السوفييتى لا يضع الصواريخ فى أوربا الشرقية لانها قد تنقلب عليه ، وتنطلق اليه .. أما فى كوبا فليس وراءها هذا الخطر .

وبات الامر معلقا على دليل قاطع بأن الســوفييت ثبتوا فى كوبا صواريخهم !

فن كراهية الأمريكان ..
وعام فرقة الاعدام !!

على حذر مضى كيندى الى غايته فى البحث عن دليل قاطع على أن السوفييت زرعوا صواريخهم فى كوبا .. فالاجراء الذى يمكن أن يلجأ اليه قد يكون السبب فى نشوب حرب ثالثة . قد تفنى البشر ، لهذا يجب أن يحسب حساباته جيدا ، حتى لا يدان امام التاريخ ان بقى بعد يوم الروع النووى تاريخ ! ولم يكن من سبيل للاستيثاق من أن الصواريخ السوفيتية قد بلغت كوبا الا باطلاق طائرة تى . يو .. وهى طائرة تجسس امريكية تشبه الاشباح وهى تطير فى اجواز الفضاء ، والسوفييت وان كانت عندهم طرز أخرى من طائرات تؤدى نفس المهمة الا انهم يتحرقون شوقا لمعرفة أسرار هذه الطائرة بالذات .. فى هذه الاثناء طرق باب البيت الابيض عميل كوبى ومعه صور لشاحنة تحمل مدفعا صاروخا يتجه الى قاعدة سان كريستوبال — على بعد ٨٠ كيلومترا من هافانا . وأصدر كنيدى الامر . وطار ريتشارد هايزر بطائرة الاستكشاف التى عبرت كوبا فى ست دقائق وصورت ٩٢٨ صورة وعادت الى قواعدها سالمة . وجرى تحميض الصور فى دقائق وبدأ تحليل محتوياتها فوجدوا تحت أشجار نخيل الجوز آثار عجلات الشاحنات والصناديق الفارغة والسواتر المستطيلة التى تبرز منها

الفوهات .. وصاح خبير عسكرى : هذه صواريخ نووية متوسطة المدى ، انها تنطلق الى مسافة ١٠٢٠ ميل بحرى وهي كافية لتبلغ واشنطن .. وتدمرها .. ثم تلفت الخبير الى كل الوجوه من حوله ، فقد كان يقول كلاما خطيرا ولابد أن يتبعه باجراء خطير .. صاح : لن يخرج أحد من هذه الغرفة .. استدعوا نساءكم . هذا السر سيبقى بيننا حتى يتصرف الرئيس كنيدى فى الموقف .

وحين سمع الرئيس كنيدى هذه المعلومات قال وهو يصر على أسنانه :

ــ لقد فعلها معى خروشوف !

وبعد دقائق خرجت حملة طائرات صورت قواعد أخرى ، وفى اليوم التالى كانت مئات الصور أمام مجلس الامن القومى الامريكى ، وعلى الفور أصدر كنيدى أوامره بفرض الحصار البحرى على كوبا وطلب الى الاتحاد السوفييتى أن يسحب صواريخه من جزيرة الانتيل العصية !

وهاج الرأى العام فى الولايات المتحدة .. ان رجل الشارع فى كل مدينة وقرية ومزرعة امريكية لا يتحسب لشيء الا ليوم المواجهة مع السوفييت . ان الامهات والآباء يمكنهم التضحية بالابناء ليقاتلوا السوفييت فى ساحات القتال البعيدة ، فى أوربا ، فى كوريا الشمالية فى فيتنام بعد ذلك .. ويقبلون التضحية مادام العدوان بعيدا .. لا يطول الولايات التى تحرسها العناية الالهية ــ هكذا يظنون ــ فاذا جاء خروشوف بالخطر الى عقر دورهم ، واذا نصب الصواريخ النووية على جزيرة لبعد بعض شواطئها عن فلوريدا بأقل من ١٥٠ كيلومترا

.. فهذه هي الطامة ، واذا تصدى كنيدي لخروشوف فانهم يصفقون لرجلهم .. ويتحلقون بحول الاذاعات وأجهزة التلفزيون في انتظار رد خروشوف على مطلب كنيدي .. اسحب صواريخك يارجل ؟

ووافق الاتحاد السوفييتي على سحب الصواريخ . وقال البعض أن كنيدى انتصر ، وقال البعض الاخر أن خروشوف أيضا انتصر ؟ فلو نشبت الحرب من جراء العناد لما كان في الموقف غالب ومغلوب ، سيفنى القادة ، وتفنى الشعوب .. وغضب كاسترو لأن الاتحاد السوفيتى سحب صواريخه دون أن يتشاور معه . فهذا الثائر ذو الكرامة يعتقد انه أصبح كالكبار مادام دخل لعبة الكبار ومنذ ذلك الحين حرص على أن يبدو بمظهر الصديق المتحالف الذي تربطه بالاتحاد السوفييتي علاقات الندية حتى وان كذب واقع الحال مظهره الذي يرضى غروره وتحده ..

وداع كاسترو لجيفارا !

والواقع ان الاتحاد السوفيتي تجاوز عن شعور المرارة الذى احس به كاسترو من ازمة الصواريخ ؟ ولكن طيب له هذا الشعور ، وعوضه عنه بمزيد من المساندة والمساعدة ، فكوبا عند الاتحاد السوفييتي هي انجح نماذج ، الانجازات السوفييتية منذ عام ١٩٤٥ .. فبعد ثورة الصين الشعبية وفيتنام قلت الارباح ؟ ونضب حصاد الحد الشيوعي وحملت الخمسينيات للاتحاد السوفييتي مايوحي بأن القدر كان ضد النظرية . فقد

تمرد جوزيف بروز تيتو رئيس يوغوسلافيا على ستالين ، وحدث أتفاق مع الصين ، وكان انضمام الالبان للصين لطمة للأتحاد السوفييتي ، وواجه السيد الاحمر عقوقا من حوارييه الدائرين في فلكه في المانيا الشرقية والمجر وبولندا .. بل ان عام ١٩٦٨ كان حافلا بأحداث الغضب التشيكي على الكرملين ، ولا يهم أن موسكو ضربت الغضب بعنف وأخمدته .. فالغضب عدوى ، وهو يبقى في النفوس كالثأر ، ويفتح أبوابا ما كان ينبغي أن تفتح لان وراءها المتاعب . قد تلقت حركات التحرر الشيوعية ضربات كثيرة بعد القضية التشيكية .. وتحدها كوبا .. ولا غيرها ، كوبا هي التي بدأت شيوعية بمواصفات سوفيتية واستمرت على هذا الدرب ، وقد أصبحت انموذجا للدعاية النظرية .. بل اصبحت بعد ذلك دعامة لها في تحركها الدولي من اجل نشر الأيديولوجية .. وكان ولاء كوبا للاتحاد السوفيتي بغير حدود .. ففي الصراع الصيني السوفيتي وقفت كوبا مع الاتحاد السوفييتي ، وهي قصة معروفة كبداية للطلاق الاليم بين كاسترو وجيفارا . فقد القى جيفارا خطابا في الجزائر طالب فيه أن يكون التعامل التجاري مع الدول الاشتراكية على اسس مستوحاة من عدالة الاشتراكية لا على أساس أسعار السوق العالمية التي تتحكم فيها الدول الراسمالية .. وقد اعتبر سفير الاتحاد السوفييتي في الجزائر هذا القول تعريضا بالسوفييت من جيفارا عاشق التجربة الصينية أو ما كان يسميه بالنقاء الصيني — وعلى الفور ابلغ الاتحاد السوفييتي الموقف لكاسترو . فما كان من الآخر الا ان منع نشر كلمة جيفارا في كوبا .. بل زاد على ذلك

ان قال في واحدة من خطبه الملتهبة « ليس من حق اى دولة أن تقوم بالدعاية السياسية داخل كوبا . والهيئة الوحيدة التي من حقها ان تفعل هذا هي منظمات الحزب الكوبي » .

وقصمت هذه القشة ظهر البعير . فجيفارا ارجنتيني وان كان قد وهب نفسه سخاء لكل الثورات . وهو من سبق كاسترو الى العاصمة هاتفا اثناء الزحف العظيم ، وهو من نظر وقضى ورتب كوادر الحزب من الطلائع حتى اللجنة العليا .. قد أحس أنه بعد غريب ، وان عليه أن ينسحب ، وقد اسر برغبته لكاسترو ، ويبدو أن هـذه الرغبة صادفت هوى من نفس كاسترو الذى كان قـد تضخم بالسلطة .. فوافق ، ولكنه لم يجحد حق رفيق السلاح .. ولم يضن عليه بوداع أمام مئات الالوف فى ميدان الثورة فى مشهد ميلودرامي يعز على أعظم مخرجى السينما وقال لكاسترو بصوته الجهورى :

ـ ليس هناك انسان يستطيع أن يشك فى اخلاص جيفارا للثورة الكوبية ...

وعندما زار جيفارا الكاتب الكبير احسان عبدالقدوس فى بيته فى القاهرة أفشى أن خطابه فى الجزائر لم يكن السبب الوحيد بل كان السبب الاخير ، وقال أن الصراع كان كبيرا بين الشيوعيين القدامى والشيوعيين الجدد ، وأن كارل ماركس لم يضع حلولا لمشاكل كوبا .. ربما لانه لم يكن يتصور أن الشيوعية يمكن أن تطبق فى كوبا !

هذه ثورة الفقراء لا الاغنياء !

على أن مشوار الشيوعية فى كوبا لم يكن رحـلة

سهلة ، ولا شراعا تملئه الريح المواتية ، بخاصة وانها لم تكن خطة معدة للتطبيق ، أو برنامجا في أضابير الثوار وعقولهم . انهم دفعوا اليها دفعا واضطروا اليها اضطرارا فالثورة عندما قامت لم تكن رأسمالية ولا شيوعية ، لعلها كانت تبتعد عن النظريتين بنفس المسافة ، ولم تكن الثورة تهتم بتسمية أهدافها بقدر ماتهتم بتحقيق الاهـداف وهى أصلاح الاوضاع المتردية ، ولو أن كاسترو وجد من الولايات المتحدة ريقا حلوا لما جرى الذى كان .. فقد نظروا اليه على انه فتى مغامر سرعان ماسوف يسقط مثلما سقط غيره من الثوار الذين لا يقفون على ارض صلبة من قوة اقتصادية تحميهم . وتصوروا — أى الأمريكيون — انهم عائدون الى هافانا لا محالة ليجددوا فيها اللهو .. ويغرفوا من ينابيع الثورة ! ولهذا كانت توجهات كاسترو الاولى الى تقليص نفوذهم على الحياة الاقتصادية . غير أن اول قانون للاصلاح الزراعي كان معتدلاً ، فقد نص على تحديد الملكية بألف فدان ، فتقدم السفير الامريكى فى هافانا باحتجاج لأن القانون يضر بمصالح الرعايا الامريكيين واستقال خمسة من وزراء الحكومة الائتلافية — ائتلاف الساسة القدامى والثائرين — وهاجمت صحف كـوبا القانون وكتبت بالبنط العريض هذه شيوعية — ولـكن كاسترو لم يكترث ، فقط قال باصرار هذه ثورة الفقراء لا ثورة الاغنياء .. ومن هنا بدأ كاسترو يتجه للعمـال والفلاحين والفقراء ليكونوا سنده وجيشه .. وحاولت الولايات المتحدة أن تستحدث على الساحة فريقا ثالثـا وهى ترفع شعار لاباتستا ولا كاسترو ، وقد نفـذت هجمة خليج الخنازير تنفيذا لهذا الشعار .. ومنـذ

خليج الخنازير اصبحت المعركة ضافرة ... واذا كان كاسترو قد عمد الى الاقتراب من الاتحاد السوفيتي بقدر ضراوة الولايات المتحدة في الكيد له .. والتآمر عليه فانه آثر أن يتقوى بالداخل ، ويشد ظهره بالكوبيين أولا .. من منطلق ان هذه هي قاعدته القوية ، وارضه الصلبة فعمل على ضم التنظيمات اليسارية الثلاثة الاساسية وهي حركته المسماة حركة ٢٦ يوليو .. وحركة ١٣ مارس الطلابية ، والحزب الاشتراكي الشعبي ، وكان صريحا في موالاته لموسكو منذ نشأته ، وأطلق كاسترو على هذا التنظيم الموحد اسم « الحزب الموحد لثورة كوبا الاشتراكية .. وعين كاسترو رئيسا للحزب بالاجماع ، وفي عام ١٩٦٥ تغير الاسم الى الحزب الشيوعي الكوبي وتم تعيين اعضاء المكتب السياسي ، السكرتارية ، واللجنة المركزية .. وتشكيل لجان الحزب .. وظل الحزب عشر سنوات بلا مؤتمر .. لأنه عقد مؤتمره الاول في عام ١٩٧٦ .. وعقد مؤتمره الثاني عام ١٩٨٠ .. وعقد مؤتمره الثالث عام ١٩٨٦ .. وللحزب على النمط السوفييتي شكل هرمي يبدأ بلجان القاعدة وفيها اعضاء الحزب على مستوى الوحدات الانتاجية الصغيرة ولجان الاقسام وتتكون بالانتخاب بين أعضاء لجان القاعدة ، ولجان المحليات على مستوى أقسام المقاطعات ، وتتكون بالانتخاب من بين أعضاء لجان الاقسام . ولجان المقاطعات وعددها ١٤ لجنة ، وتتكون بالانتخاب من بين أعضاء لجان المحليات التابعة لكل مقاطعة .

وفي أعلى الهرم اللجنة المركزية للحزب وتتكون

بالانتخاب من بين أعضاء لجان المقاطعات . وسكرتارية اللجنة المركزية وتتكون من السكرتير الاول — الرئيس فيدل كاسترو — والسكرتير الثاني وهو شقيقه راؤول كاسترو وسبعة أعضاء .. ثم المكتب السياسي وهو أعلى سلطة في الحزب وفي الدولة ويتكون من كاسترو وراؤول و ١٢ عضوا .. و ١٠ اعضاء مناوبين .

هذا هو الحزب ، وهو يتغلغل الى كل مسام الحياة في كوبا ، يتسلل الى البيوت .. بل والمخادع — يتسلل الى المكاتب بل والجماجم .. يتسلل الى المقاهي بل والصدور وما فيها من نوايا ! قد أصبح خوف كاسترو من تآمر الولايات المتحدة عليه شاملا كل بلاده ، ولهذا بدأ يغرس في النفوس قدسية كراهية الولايات المتحدة وامتلئت كوبا باللوحات المرسومة أو الاعلانات التي تتسلق الشوارع داخل المدن وعلى الطرق وفيها جيش الثورة وهو يحمل بندقيته لينحمي الحياة .. يحميها في مصنع او على بلاج ، أو في حقل . وقد استطاع كاسترو أن يجند أعدادا مهولة من شباب كوبا ، وفي احصاء أخير أنه يملك أقوى جيش في نصف الكرة الغربي بعد الولايات المتحدة ، وقوام هذا الجيش يتجاوز في نسبته الى عدد السكان اى نسبة في أى دولة أخرى بما فيها اسرائيل ، فضلا عن الجيش النظامي الذى يتجاوز ٢٠٠ الف مقاتل فانه جند نصف مليون للمليشيا ، وجند من شباب العمال مائة الف ، ولجان الدفاع عن الثورة تتفوق على كل هذه الاعداد مجتمعة .. وأضف اليها قوات الامن وقوات الحدود وقوات الطوارىء .. باختصار فان ٦٠٪ من سكان كوبا لهم أنشطة مقربة مباشرة .. وسكان كوبا عشرة ملايين نسمة !

. ولان الجيش صمام الأمان ، وحامل الميزان والمدفع .. فان كاسترو هو القائد الاعلى للقوات المسلحة .. وشقيقه راؤول هو وزير الدفاع ورئيس هيئة الاركان .

أمن كاسترو جانب الثورة .. وأعلن ذلك بواقع قواته ، وكثافة سلاحه حتى قيل أن كوبا فى عهده لم تعد جزيرة فى البحر الكاريبى بل أصبحت بارجة حربية تنوء بحملها من السلاح .. وواكب هذا مضى كاسترو الى الاصلاح . أن كل من فروا من قصورهم أعطوه فرصة للاستيلاء على هذه القصور واستعمالها لصالح الشعب كمدارس او مستشفيات أو مكتبات . ومن هؤلاء من أعطوا لبعض رجال السلك الدبلوماسي قصورهم أو رياش هذه القصور ، وسياراتهم أو مالا يستطيعون حمله وهم يفرون .. وقد كانت الثورة فرصة الثروة لهذا البعض .

وكان كاسترو يؤمن ان البداية يجب أن تكون بجناحين التعليم والصحة . أما التعليم فقد جعله مع العلاج مجانيا ولم يحد عن هذا ابدا ، حتى أن الامريكيين فى عز هجومهم عليه لم ينكروا أنه أعطى لشعب كوبا بسخاء فى هاتين الساحتين . ولكن التوفيق لم يكن حليفه فى أمور اخرى لم تكن مدروسة ـ كما قلت قبلا ، خذ مثلا قضية السكر . أن كاسترو كانت به عقدة من السكر ، كان يعتقد أن من الخطأ والغفلة ان تكون كوبا أسيرة المحصول الواحد ، ولهذا نادى بالا يكون السكر سيد الموقف ، وان توزع الارض الزراعية بين المحاصيل الاخرى .. بل نادى بالصناعة ، واندفعت كوبا الى انشاء مصانع لم تعد لها دراسات الجدوى ، اقاموا مثلا

مضنما لمدادات النور .. ثم تبين لهم انهم يستطيعون استيراده من فرنسا بنصف ثمنه .. وبدأت الانتقادات توجه لهذه السياسة العشوائية ، وسمع كاسترو من يقول اننا كرهنا زراعة القصب بسبب الأمريكيين مع أن الارض كوبية .. والايدى التي تحول القصب الى سكر ايادى كوبية ، ان زراعة القصب وصناعة السكر أجدى من عدادات النور ، وقد اغلقوا المصانع التى تخسر .. ووقفوا عن انشاء المصانع الجديدة . فلم تنهض الصناعة كما حلموا .. اما الزراعة فلم تتقدم كثيرا مع أن المأمول ان تزيد الانتاجية بعد أن أصبحت الأرض ملكا لمجموع من يزرعونها ..

كالنار تأكل بعضها !

وخلال التطبيق لم تكن وجهات النظر بين الرفاق تتلاقى على كل شيء .. كانت تحدث خلافات ، واكثر من هذا كان الصراع على السلطة يأخذ أشكالا علنية او سرية ، ولكن كاسترو كان يحسم كل المواقف لصالحه فى النهاية ، وبدأ الشعب الكوبى يتهامس عن الابطال الذين يختفون من الساحة ، او الرفاق الثائرين الذين يلوذون بالفرار قبل ان يجرى التنكيل بهم .. وأشاع هذا ذعرا فى قلوب الألوف التى سعت الى الفرار من كوبا ليس فقط رفضا للشيوعية بل ايثارا للسلامة .. وقد انطبق على الثورة الكوبية ماينطبق على سائر الثورات من انها تأكل ابنائها .. أو انها كالنار تأكل بعضها .. أن لم تجد ماتأكله .. ومن الابطال الذين فقدتهم كوبا فى هـــذا

الصراع الدكتور خوسيه ميرو كاردونا .. وكان استاذا في القانون وهو أول من نظم المعارضة لحكومة باتستا وقد عينه كاسترو رئيسا لوزراء حكومة الثورة ثم نفاه حين اتجه الى الشيوعية التى يرفضها ميرو كاردونا !
وكان الدكتور مانويل أوروتيا من اكبر المدافعين عن كاسترو وثورته عند باتستا ، ولهذا تم تعيينه اول رئيس للجمهورية بعد انتصار الثورة ارضاء لكاسترو ، وقد أقيل وحددت اقامته لما احتج على انتشار السطوة الشيوعية في الحياة الكوبية ، بل قيل ان ثلثى الاعضاء التسعة عشر الذين تألفت منهم أول وزارة ثورية قد القوا فى غياهب السجن لانهم اختلفوا مع كاسترو .. وامتدت نار التصفية الى رفاقه فى معارك الجبال الشرقية .. وحتى زعماء العمال لم يترك لهم كاسترو حرية التعبير .. فقد تدخل ليلقى نتيجة انتخابات عمالية أطاحت بمرشحى الشيوعيين ، وليضع دافيد سلفادور زعيم العمال فى السجن ، مع أنه كان من أول وأقوى مؤيدى كاسترو !

ثم احكم كاسترو قبضته أكثر واكثر عندما استولى على كل اجهزة الاعلام من صحف ودور نشر وشبكات اذاعة وتلفزيون ، بل استولى على صناعة السينما ، وركزت هذه الاجهزة رسالتها على الدعوة للشيوعية ، ونشطت محطات التشويش القوية لتمنع عن الاذان كل مايمكن أن يجنى من الولايات المتحدة عبر الكاريبى .. والويل لمن يضبط متسمعا .. أو مشاهدا لهذه الدعايات السامة ..

وكان كاسترو يجند كل الشعب وراء كل غاية من غاياته ، ويجعلها هم الناس فى الليل والنهار ، ويحشد

لها قوة كوبا كلها .. رجالا ونساء .. وشيوخا واطفالا ، وعسكريين ومدنيين ، كان يقول هذا عام الزراعة .. فيعطي العام للزراعة دفعة خرافية ، ويقول هذا عـــام التربية والتعليم فتبنى المدارس وتفتح أبوابها فى غضون العام لعشرات الالوف ، ويقول هذا عام الصحة .. فيلمس الاصلاح بعصا سحرية هذا المرفق الانسانى الهام .. فلما بدأ كاسترو التخلص من رفاقه ، ولما أصـــبحت هافانا وسنتياجو وفارادير وغيرها من المدن تنام كل ليلة على سيرة بطل اختفى ، أو شهيد أعدم انطلقت نـكتة كوبية صارخة تقول : هذا عام فرقة الاعـــدام رميـا بالرصاص !

مع انه ضد عبادة الفرد !

ويحلل المفسرون هذه الضراوة .. والطبع الدموى فى ثورة كوبا بأنه وليد المناخ الحار ، فكوبا استوائية ، وطعام الشعب حريف يهيج الدماء فى عروقهم ، وهى هكذا فى كل ثورة من قبل .. يتقاتلون ويسقط الشهداء وتسيل الدماء .. ولكن المفسرين أضـــافوا قائلين ان الثورات السابقة كانت فيها درجة من درجات الرحمة .. لانها كانت ثورة كوبيين على كوبيين ، أما هذه المرة فهنـــــاك أيد خارجيـــة تخطط للتصـــفية .. وتقول . لكاسترو تخلص من هـــذا .. وتغدى بهـــذا قبل أن يتعشى بك . الناس فى كوبا كانوا يؤمنون بأن مستشارى كوبا من الـ ك . جى . بى اى ــ المخابرات السوفيتية ــ الذين جاءوا لكشف مؤامرات المخـابرات

الامريكية عليه هم الذين علموه كيف يتخلص أولا بأول من كل من يشك في ولائه ، من كل تحرك في صورة اطماع .. من كل من تحوم حوله شبهة !

وهكذا تحول الفتى العظيم .. رآهب الحرية وعاشقها الى صورة مخيفة .. صحيح أن من شعبه الفقير من يهتف له من الاعماق ، ويعتبره المحرر البطل . والمنقذ وحامل الرغيف .. الا ان الشعب لم يكن سعيدا ..

وهذا يحدث كثيرا في حياة الشعوب المتعطشة لزعيم انها لا تكاد تلقاه حتى تنجذب وراء مغناطيسيته ، فتنسى تجاوزاته التي قد تصبح جرائمه ، وقد يمضي وقت طويل قبل أن تتذكر .. ووقتها يكون الزعيم قد مكن لنفسه ، وتمكن ، وحول كل بلده لتكون في خدمته ، ساهرة عليه ورهن اشارته ، وتنفذ كل مايمليه وكانه عائد بالزمن القهقرى الى عبادة الفرد ..

مع أن من اول الاشياء التي نادى بها كاسترو انه ضد عبادة الفرد .

والذى يراجع الثورات الشيوعية في بلاد أخرى يجد صنوا لكاسترو .. يجد من يحكم الى آخر العمر ، ويجد من أصبحت كلمته فوق القانون ، وفوق الدستور ، ويجد من يشعلها نارا .. أو يسيلها دماء .. وأذا خرج من داره صفقت له الملايين . فأحيانا لا يكون فرد بعينه مغلوبا على امره .. احيانا يكون شعب بأسره مطحونا .. وسادرا في عبوديته ..

وكان الذى يثير جنون كاسترو هو هذا الحصار المفروض عليه من الولايات المتحدة .. صحيح أن الاتحاد السوفييتى لم يتركه وحيداً ، وصحيح أنه بحل بحلولا

كاملا محل الأمريكيين فى حجم التجارة ، وتوريد السلاح وضمان الحماية ، ولكن كاسترو أحس بالاختناق ، واحس وهو فى جزيرته الصغيرة الواقعة بين شقى الرحى .. بين الولايات المتحدة شمالا وهى تتربص به الدوائر .. وبين أمريكا اللاتينية جنوبا وقد طردته من بيت الاسرة ، أحس انه سجين كوبا أكثر ممـــا هو زعيم كوبا أو ديكتاتورها .. ولكى يقاوم كاسترو هذا الاحساس سعى الى الانطلاق الى الخارج .. سعى الى مجد وراء الحدود يخرج به لسانه للولايات المتحدة ، ويقول لها انه اخترق الحصار وصار مؤثرا .. وصاحب بصمة فى عديد المواقع وكثير الساحات ..

وقبل أن يفك كاسترو عقدة السجين فيه .. دعنا نناقش كيف حال كاسترو مع الرغيف فى كوبا .. كيف وفر الطعام لشعبه .. وجعل الرغيف قسمة عدل بين الجميع !

بالبطاقة لن يجوع الأغنياء والفقراء سيجدون مايأكلون !!

الظاهرة اللافتة للانظار ـ اكثر من كل الظواهر حولها ـ طوابير الكوبيين امام نوافذ وحوانيت بيع السلع فهى طوابير طويلة .. ولكنها هادئة دلالة أن القوم ألفوها ، وأنها أصبحت بعض حياتهم . بل أصبحت قاعدة من قواعد حياتهم لأن من لا يقف فى الطابور لا يأكل ! فكل شيء فى كوبا بالبطاقة ، والبعض ينظر الى البطاقة على انها وسيلة تحكم فى ارزاق الناس ، والبعض الاخر ينظر اليها على أنها صكوك عدالة التوزيع .. وهى فى النهاية عنوان على سلة الطعام التى تعتبر أكبر قضايا الانسان .. فى كوبا أو فى غير كوبا خاصة أن الأحصائيات الاخيرة تقول أن فى العالم بليون جائع .. اى بين كل اربعة على ظهر الارض هناك واحد يعيش مع المسغبة ويبيت على الطوى !

ولعل البحث فى قضية الرغيف او البطاقة أو سلة الطعام بحث يكتسب اهمية خاصة فى كوبا لأن من الاهداف الاولى المعلنة للولايات المتحدة هدفت تجويع كوبا كاسترو وقد عزت المعلومات عن قضية الرغيف لان كاسترو اعتبرها احد أسراره .. ولم يكن ماكتب عنها الا حملات صغيرة من المهاجرين من هافانا الى فلوريدا .. وكلها تتحدث عن

الحرمان والجوع . بل وأصبح للكوبيين المهاجرين فكاهاتهم التي يتندرون بها على حال الطعام فى كوبا فيقـولون ان صديقا التقى بصديقه فى مطار ميامى فسأله الى أين؟ فقال الى هافانا !.. فسأله لماذا ؟ فأجاب : لأجرى بحثا عن الطعام فى كوبا .. فصاح به صديقه : أذن هرول ؛ فقد لا تلحق منه شيئا !

في الاحصاءات أن مستوى دخل الفرد فى كوبا عام ١٩٥٠ كان أكبر من مستوى دخل اى فرد فى أمريـكا اللاتينية ماعدا فنزويلا البترولية والارجنتين الصناعية .. وكان الفرد يستهلك - مثلا - ٧٠ رطلا من اللحـم سنويا . وهو ضعف مايستهلكه المواطن فى بيرو .. ولكن الواقع أن هذه الارقام خداعة ومضللة لان كوبا الإقطـاع لم تكن بهذه السعادة . فنسبة ٤٪ فقط من اسر الفلاحين كانت تأكل الطعام بانتظام و ٢٪ تأكل البيض بانتظام .. ومربى الدجاجة يبيع بيضها ليشترى خبزاً و ١١٪ فقط من السكان كانوا يشربون اللبن .. والطعام الشعبى من الفول والموز والبطاطس والارز كان يكلف الاسرة ثلثى دخلها .. ولكن القاعدة قبل الثورة هى ككل قواعـد السوق المفتوحة . معك فلوس تأكل كالامريكى والاوربى ليس معك .. لا تأكل !

واكثر الكوبيين كانوا من سكان الريف .. وكان ٢٠٪ من الفقراء يحصلون على نسبة تتراوح بين ٢٪ و٦٪ من الدخل القومى . بينما تخطف ٢٠٪ أخرى من شريحـة المحظوظين المتخمين ٥٥٪ من هذا الدخل ، وعشـية الثورة كان ٩٪ من السكان يمتلـكون ٦٢٪ من الارض

و ٦٦٪ منهم يملكون ٧٪ من الارض .. وفى منطقة سيرامايسترا حيث كان كاسترو يقيم .. كان الفلاحون يطردون من الارض ببنادق الجيش ، أو بنادق الحراس الخصوصيين للاقطاعيين ، ووقتها كان كاسترو يتصدى للدفاع عن حقوق الفلاحين امام المحاكم .. ولكنه لم يكن يظفر منها بطائل . ووقتها أيضا وقر فى ضميره أن القضية ليست قضية افراد بل قضية شعب ، وانها لا تعالج فى ساحات المحاكم بل تعالج في مواجهة الحاكم من قمم الجبال وقيعان الوديان واحراش الغابات !

وكان ثلث عدد العمال ــ فى شعب يبلغ تعداده عام ١٩٥٠ سبعة ملايين نسمة ــ كان ثلث عـــدد العمال مستسلما للبطالة ، او مؤديا لأعمال وضيعة مثل تنظيف السيارات ، وتلميع الاحذية ، وبيع أوراق اليانصيب ، أو الاستجداء . وكان فى هافانا خمسة آلاف متسول . وكانت الخادمة تعمل طوال الشهر بمتوسط خمسة عشر بيزو ــ وهو يوازى الدولار ! ــ والزنوج بؤساء وأن كانوا من الطيبين ، لأن نسبة الاشرار بينهم ليست كالنسبة الامريكية ــ ومن النساء من كان يعز عليهن الانفاق على المواليد .. وكانت فى هافانا دار لتربية الايتام اشتهرت بسلة مثبتة عند بابها ، تذهب اليها الام فى غلالة الفجر او فى رائعة النهار فتضع مولودها الذى لا تستطيع الانفاق عليه ، وتمضى لحال سبيلها .. وكانت اسم الدار فاليدس .. وكان كل أولاد السلة يسمون فاليدس !

وبينما كان عدد قبيلة فاليدس يزداد كان فى نادى

اليخت فى هافانا ــ وهــــو من أرقى اندية العالم ــ وتستطيع أن تجده فى كل الافلام الامريكية التى صورت فى كوبا قبل عام ١٩٦٠ ــ كان فى هذا النادى المربيات الزنجيات يدللن الاطفال الشــــقر ، الذين يولدون وفى أفواههم ملاعق الذهب .. وكان نساء الطبقة الارستقراطية فى كوبا يشترين معاطف الفراء ليرتدينها .. مــع أن مناخ كوبا استوائى لا تهبط فيه درجة الحرارة عن ١٥ درجة مئوية فى أى من ليالى العام .

وكانت بيوت كوبا نظيفة ، فثلثاها بلا مرافق أو ماء يجرى ، وواحد بين كل ١٤ مواطنا عنده كهرباء .. وهافانا جميلة وواجهة مشرقة ، ولكن الريف حزين وفقير وبائس والاسرة من خمسة أفراد تعيش فى غرفة واحدة ، ومن يهجر الريف الى المدينة فليس أمامه الا أعشاش الصفيح على أطراف المدن ، وشركة الكهرباء الامريكية تضىء ليل كوبا أو تطفئه وتحقق من الارباح أعلى أرقام تحققهــا شركة كهرباء فى العالم !

كاسترو ومائدة الفقراء !

ومساحة كوبا هى مثل مساحة هولندا والدانمرك ، وبلجيكا مجتمعة ، ومع ذلك فمواردها لم تكن تكفيها ، ومناخها صالح لكل المحاصيل ، فالمرتفعات لزراعة البن ، وحيث ترتفع نسبة الرطوبة تجرى زراعة الدخان ومنه يصنع السيجار الكوبى ــ أفخم ســيجار فى العالم ــ ونصف السهول مزروعة بالقصب ، ولكن ثروات هــذه

المحاصيل تذهب لجيوب كارتل الاقطاعيين الذى أصبحت له سطوة وهيلمان . ولان نسبة عالية من نادى الكارتل الاقطاعى من الامريكيين فقد كانت الولايات المتحدة ساهرة على حماية مصالحهم ، وقد كانت اتفاقية بلات تعطى الحكومة الامريكية حق التدخل كلما رأت أن الحكومة غير ناجحة .. ومقياس نجاح الحكومة هو المحافظة على المصالح الامريكية وعدم المساس بها ، والا فان الحكومة الامريكية تتدخل بسفن ، وتأمر قواتها بالنزول الى الشواطىء الكوبية ، أو بالانتشار من قاعدة جوانتانامو التى تحتفظ بها الولايات المتحدة الى الان ، وكان السفير الامريكى هو الشخصية الثانية فى كوبا بعد الحاكم ، ولكنه فى عهد باتستا كان الشخصية الاولى ، ولهذا كان كاسترو يردد دائما قولة خوسية مارتى : ان الحرية ليس معناها أن تستبدل سيدا بسيد ! أى أن الكوبيين لم يحققوا الحرية لمجرد انهم تخلصوا من السيد الاسبانى . فقد استقبلوا بعده السيد الامريكى . وعندما اندلعت ثورة كاسترو كان رأس المال الامريكى المستثمر فى كوبا يتجاوز البليون دولار .. وهذا الرقم يوازى الثمن لكل الاستثمارات الامريكية فى أمريكا اللاتينية ، وكانت كوبا هى الثانية فى الاهمية عند أمريكا ، لاتسبقها الا فنزويلا صاحبة البترول ومفتاحه ، وكان الامريكيون يملكون تسعة من عشرة مصانع كبرى للسكر ويتحكمون فى ٥٤٪ من مطاحن القمح ومضارب الارز ولهم ربع الودائع والارصدة فى البنوك ، وهم يملكون مرافق التليفون والتلغراف والكهرباء وشركات توزيع البترول والكاوتشوك والكوكاكولا وتتحكم المافيا الامريكية ــ خاصة من ال كابونى ــ فى فنادق الجزر ، وتجارة الخمور

والمخدرات والجنس .. وكانت الولايات المتحدة تأخذ ٦٠٪ من سكر كوبا .. ولهذا كان اقتصاد كوبا لايعتمد فقط على سلعة واحدة .. بل يعتمد ايضا على بلد واحد .

وكانت كوبا سوقا لكل السلع الامريكية . ومن عجب مثلا أن كوبا كانت تصدر الطماطم طازجة الى الولايات المتحدة وتستوردها منها معلبة بتسعة اضعاف ثمن البيع الاول ! وتصدر الجلود وتستوردها أحذية ، بل وتصدر التبغ الرفيع النوع وتستورده سيجارا .. ومن المبكيات مثلا أن تسعة من ٢٤ مصنعا للسيجار الهافانى المعتبر اغلقت ابوابها افلاسا أمام منافسة السيجار الذى يصنع فى الولايات المتحدة .

وكان اقتصاد كوبا يتهاوى قبل الثورة .. وقد ارسل البنك الدولى للانشاء والتعمير بعثة لمعرفة أسباب التدهور فى كوبا واقتراح خطوات ووسائل الازدهار .. فأشار تقرير البنك الى أن ٦٠٪ من سكان كوبا ممن يعيشون فى الريف يعانون من سوء التغذية ، وان البطالة متفشية ، ولهذا فلابد من تعليم الناس وتغذيتهم . ومن المضحكات فى تقرير البنك أنه استرسل فى وصف ترشيد الناس باستعمالات الارز لمضاعفة قيمته الغذائية خمس مرات ، وكان التعليق الساخر على هذه الفقرة : ولكن البنك لم يقل كيف يحصل الفقراء على الارز ! فالقضية أن الجائع لا يجد مايأكل .. وليست القضية كيف نعد له طعامه ؟!

وبينما كان خبراء البنك يكتبون هذه الوصايا ، ومنها النافع ومنها الكوميدى ، كان كاسترو يفكر فى قائمة

طعام اخرى لشعب كوبا ، ومن الخطب الاولى التى قالها جيفارا ـ أيام كان توأم الروح لكاسترو ـ قال : أقولها واكررها دائما أن رسالتنا هى أولا وقبل كل شىء توفير الطعام لكل كوبى ، جيفارا قرأ التاريخ وعرف أن الثورة الفرنسية ـ ام الثورات قامت من أجل الرغيف ـ وصارت هذه الثورة مثلا .. وصار الرغيف أقوى أسباب الثورات ، أما كاسترو فقد قال فى احدى خطبه المبكرة .. فى ظل نظامنا لن يجوع الاغنياء .. ولكن الفقراء سوف يجدون مايأكلون .

وفى الاعوام الاولى للثورة لم تكن البطالة معروفة فى كوبا ، الذى فعله كاسترو هو أن زاد النقود السائلة فى ايدى الناس فراحوا يشترون مايريدون . ولكن لان عندهم عقدة الحرمان فقد كان اندفاعهم الى الشراء سببا فى حدوث الازمات ، خاصة فى السلع الأساسية ، ولم يكن الاقبال على الشراء هو السبب فى الازمات فقد أضاف الواقع أسبابا أخرى منها أن الخبرة الامريكية انسحبت من كوبا بين يوم وليلة ، وقبل أن تمكن للخبرة الكوبية أن تحل محلها حلولا صحيحة ، ومنها أن الكوبيين فوجئوا بالتطبيق الشيوعى والمزارع الجماعية .. ولهذا لم تكن الانتاجية فيها على قدر التحدى الذى يواجهون أو بمقدار ماهو مطلوب لكفاية الاسواق ، ومنهـا ان أيزنهاور عندما أعلن الحصار الاقتصادى على كوبا قطع عنها القمح والالات الزراعية .. بل ان المخابرات الامريكية عمدت الى التخريب فأحرقت المحاصيل فى حقولها وذبحت الماشية فى حظائرها ، وحين وقع عدوان ، الكوبيين المارقين بمساندة أمريكية ـ على خليج الخنازير

اضطر كاسترو الى تحويل الايدي العاملة الى أيد تحمل السلاح .. وكانت طامة أن عام ١٩٦٢ جاء بالجفاف .. حين عزت الامطار ! وقبل كاسترو وكانت السفن الامريكية تجيء من نيواورليانز وموانى فلوريدا وهي محملة بالبضائع - وكأنها سوبر ماركت متنقل - فلما انقطع سيل هذه السفن استوردت كوبا حاجتها من اليابان ومن الصين ومن مصر . وهي قصة معروفة قصة السفينة الصينية التي وصلت الى هافانا وعلى ظهرها خمسة آلاف طن من زيت فول الصويا ، وراح الكوبيون يبحثون لها عن مخازن فلا يجدون ، ولم يكن أمامهم الا أن يغسلوا جيدا خزانات البترول ، ويضعوا فيها الزيت اما البصل الذى حملته السفن من مصر فانهم لم يجدوا له مكانا لتشوينه .. فتعفن ، وخنقت رائحته سكان الميناء !

وصارت الحياة بطاقة !

بعد ثلاث سنوات من الثورة قال فيدل كاسترو أن العمل كثير ، والنقود متوافرة ، وهذا خلق أزمة لان البضائع التي تشترى غير موجودة ، وقد زادت الاسعار ، ولهذا اضطر كاسترو الى التدخل ليضع أسعارا رسمية للأرز واللبن والخبز والزبد والجبن والخنزير والبطاطس والصابون .. وقد تقرر بيع هذه الاشياء بالبطاقة ، ووقتها قال كاسترو أن التوزيع بالبطاقة ليس معناه ندرة السلع بل معناه المساواة في تحمل الاعباء .

وأثار فرض نظام البطاقة جدلا خاصة أنه نظام

يطبق في ظروف خاصة كالحروب ، مثلما حدث في أوربا أو على سلع محددة كما هو حال البطاقة في مصر مثلا ، والعادة أن سلع البطاقة هي مما يستهلك الفقراء ، ومهمة البطاقة ان توفرها بأسعار يستطيعها الفقراء .. أما في كوبا فالبطاقة عندهم أشمل بطاقة ، واكبر بطاقة لان كل شيء بالبطاقة ، صارت الحياة بطاقة والبطاقة هي تجسيد وجود الفرد او الاسرة ، ومن لا يملك بطاقة فهو لا شيء لانه لا يستطيع أن يقف في الطابور ، فقد صارت المعادلة انا أقف في الطابور .. اذن انا أعيش .

والبطاقة الكوبية سخية كريمة في اتجاه أو آخر .. وشحيحة ضنينة في اتجاهات أخرى . ولعل أسعد الناس حظا منها هم الأطفال لان لكل طفل لتر لبن يوميا وهذه نعمة ، ولمن تجاوز الستين حق شراء ٦ علب لبن معلب شهريا ، وماتوفره البطاقة للفرد العادي هو خمسة آلاف سعر حراري في اليوم ، ويمكن تجاوز هذه الكمية لمن يحملون شهادات مرضية ، أو الحوامل ، او مرضى القرحة والسكر والانيميا ، فمريض القرحة مثلا له دجاجتان كل شهر ، السليم له دجاجة . وللمريض كيلوجرام من اللبن كل يومين .. والسليم له نصف هذه الكمية .. وللكوبي اربعة أوقيات من البن شهريا .. وقد تقول أن هذه الكمية لا تكفي ولكن هب ان بيتا من اب وأم وثلاثة اطفال .. عمليا فان الاب والام وحدهما يشربان القهوة ، مع ان الاسرة تأخذ خمسة انصبة من البن ، ولكن البن هو موضوع الصدام دائما بين الشعب والدولة ، لان الشعب الكوبي شعب يدمن القهوة ، ولا يدمن الشاي ، ولا يفكر في اي شراب آخر .. وقد

وجدت الدولة حلا لمدمنى القهوة ، صرفت للمقاهى كميات من البن لتبيع القهوة لزبائنها .. واعتبر هذا التصرف انفراجا عظيما .. ولمواليد ماقبل عام ١٩٥٥ ثلاث علب من السجائر كل شهر ، ولكل منهم ٤ من السيجار . ولعل هذا التحديد صحى فى المقام الاول لانه يأخذ الشعب بعيدا عن التدخين .. والشبان أقل من ١٦ سنة ليس من حقهم أن يدخنوا .

واللحم يوزع مرة كل تسعة ايام ، والشعب يقسم على يومين لاخذ اللحوم ، ولكل مواطن سبع أوقيات من اللحم من الشرائح الممتازة و ١٥ أوقية من لحم الدرجة الثانية — وقد تسمع من يقول للجزار من فضلك رقق قطع اللحم ليزيد عددها ، أو تحاشى منطقة الشغت لاننا لا ناكله ! — وقد نشأت طبقة من الجزارين الذين يغشون فى الميزان ، فيتجمع لهم فى آخر النهار بضعة كيلوجرامات فرق ميزان ، وهم يبيعونها فى السوق السوداء . واذا كان ثمن كيلو اللحم فى البطاقة بيزو واحدا ، فهو فى السوق السوداء تسعة بيزو أو عشرة . ولكل مواطن دجاجتان فى الشهر والحصول على دجاجة من السوق السوداء أسهل من الحصول على كيلو اللحم اللحم هام جدا . واذا كان عند الفلاح بقرة فالدولة تعرف لانه وقع على ايصال بتسلمها وهو يقدم للدولة مواليدها ولا يمكن أن تذبح البقرة قبل أن تكمل العام الخامس من عمرها . ولهذا ففى كوبا لا يعرفون اللحم البتلو .. ومن يذبح بقرة قبل عامها الخامس يحكم عليه بخمس سنوات سجنا !

وهذه الكميات من الطعام مفروض فيها أن تكفى ..

من وجهة النظر الصحية هى تكفى ولان الذين اخذوا على العز القديم يشكون لان مجرد الشراء من طابور ، وبكميات محدودة هو ضد ما اعتادوا ، والواقع أن لست البيت دورها فى تحقيق الاكتفاء ، بما تتسلمه ، ولهـذا فترشيد الاستهلاك فى كوبا اجبارى يفرضه الكوبى على نفسه لانه ليس عنده مايلقى به فى سلة المهملات !

غير أن مما يعيب نظام البطاقة أنك تعرف أن فيها ٢٢ سلعة مثلا ، ولكنك لا تضمن تسلم كل هذه السلع كل شهر ، أو تسلم نفس الكمية كل شهر ، وعنـــدما حدثت ازمة بين الصين الشعبية وكوبا لم تستورد الاخيرة من الاولى كميات الارز المعتادة فنقص نصيب الفرد من ستة ارطال شهريا الى أربعة ! وكمية الفواكه التى تعطى للفرد تتوقف على الجو والمحصول ، واهل كوبا يـكادون يكونون محرومين من الفواكه .. اذ يتسلم الواحد منهم كيلو من الموز شهريا .. مع أن كوبا هى بلاد الموز ، ونصيبه من الاناناس وجوز الهند والموالح لا يتفق البتة مع الحصاد الغزير لبلاده من تلك المحاصيل ، والواقع أن هذه المحاصيل أصبحت للتعليب .. أو للتصدير طازجة الى دول الكتلة الشرقية التى تغطيها الثلوج شتاء .. او الى الاتحاد السوفييتى والجزء الاكبر مما يتبقى تأكله الوفود التى تذهب الى كوبا كل يوم لان كوبا اصــبحت دولة مؤتمرات .. وهى بالمؤتمرات تفك طـوق الحصار الامريكى حولها . كأنها تقول للامريكيين : انظروا انتم حاصرتمونا .. ولكن كل العالم يخرق الحصار ويجيىء الينا ، وهى معروفة قصص الكوبيين الذين ينفسون عن غضبهم فيقولون لاعضاء المؤتمرات بغيظ :

ـ أنتم تجيئــــون فتلتهمـــون طعامنا .. وتأكلون فاكهتنا ! :(٥)

الانفراج الغذائى .. كيف ؟!

وعلى طول كورنيش هافانا ـ وهو لا يقل عن ٢٥ كيلومترا ـ تجد الصيادين . فالصيد رزق مشروع .. شرط الا تكون الكميات كبيرة ، والكوبي لكي يريح نفسه يصيد ما يأكله مع أسرته . وليس فى البطاقة أصـناف مثل الجمبرى او الاستاكوزا .. فهذه تبيعها كوبا لفرنسا .. وفى فرنسا تباع لزبائن المطاعم والفنادق بأغلى الاسعار تحت اسم أسماك البحر الكاريبى .. أو فواكه البحر الكوبى .

ولكن الكوبى وجد المنافذ ليخترق نظام البطاقة ، فمن يملك بضعة أمتار حديقة فى بيته فانه يزرع فيها شجرة فاكهة .. هى اجدى عليه من الزهور لانه يأكل منهـــا ، ويبيع لجيرانه ، أو قد يقايضهم على فواكه من أشجار عندهم ، وفى المزارع الجماعية فان الفائض بعد المحصول الذى تتسلمه الدولة يوزع على العمال بسعر معتدل . ولكن كل هذا لا يكفى .. وقد تصاعدت الاصــــوات ، وبلغت كاسترو .. وبدأ التفكير فى انفراج « غذائى » آخر .. لان البطاقة أصبحت عنوانا على الحياة الضيقة التى تمضى بالكاد ، أو كما سموها هى عصر السلعة من الحانوت الى البطون !

توصل المفكرون الى السوق الموازية ، حوانيت اخرى ليس فيها طوابير ، مثل السوبر ماركت الغربى ، تدخلها

وتشترى منها حاجتك ولكن السعر قد يبلغ عشرة اضعاف السعر للسلعة في البطاقة ، فالبنطلون الجينز مثلا تشتريه من السوق الاصلية بعشرة بيزو ، ومن السوق الموازية بمائة بيزو ، وقد قلنا ان البيزو يعادل الدولار . وفى السوق الموازية تلك السلع المشروعة وانت لا تسأل من أين لك هذا ان اشتريتها . ولكن بجانب أسواق البطاقة ، والاسواق الموازية عرفت كوبا نوعين آخرين من الاسواق : هما السوق الرمادية ، والسوق السوداء اما الرمادية فهى التى تبيع فيها مايزيد على حاجتك من سلع البطاقة . ففى بيتك طفل يعاف اللبن ، فمن حقك ان تبيع هذا اللبن لتشترى للطفل مايأكله من السوق الموازية ، وفى السوق السوداء تجد السلع المسروقة .. مثل لحوم الجزارين التى قلنا عنها ، وفى المطعم — وهو ملك الدولة ككل شيء فى كوبا — قد تطلب ساندوتشا من البائع فيعطيك ، ولكنه يختزل من قطعة الجبن ، ويتجمع له فى آخر النهار مايمكن أن يبيعه فى السوق السوداء واشهر سلع السوق السوداء البن لانه سلعة تصدير — وكل سلع تصدر محرم بيعها وعرضها على الافراد — وكيفية الحصول عليه « جريمة » حتمية لان أحدا فى كوبا لن يصدقك اذا قلت له انك تبيع نصيبك . فالنصيب من البطاقة ضئيل .. لايكفى المدمن أكثر من يومين .. والبن يسمى الذهب الاسود ، وقد تفنن تجار السوق السوداء فى بيعه . وفى اخفائه ، وقد يشم البوليس رائحة البن وهو يطحن فيقوم بعمل كبسة على المكان .. تماما مثلما تفعل شرطة المخدرات فى البلاد التى تحرم وتجرم حيازة المخدرات .

وقد يستوقفك من يريد أن يبيع لك ثمار الجوافة ، واذا قبلت أن تذهب معه الى حيث يخفيها فاشتر منـه ولا تتردد أن كانت الثمار سيئة .. فهذا دليل على أنها من شجرة فى حديقته ، أما اذا كانت الثمـــار لامعة ومتساوية الاحجام وجميلة الشكل فمعنى ذلك أنها معدة للتصدير . والاتجار فيها جريمة .. والحذر منهـا عين العقل .

سوق الفلاح لازالة الجفوة !

يخرج من البطاقة .. وحزامها المشدود على البطون خمس السكان الذين يدرسون فى المدارس ويعملون فى المصانع ، ويتطببون فى المستشفيات .. فهؤلاء جميعا يتناولون طعاما مجانيا ساخنا ، والاطفال مدللون وعصير الفواكه يصرف لهم حتى ولو لم يكن متوافرا الا فى مراكز البيع للدبلوماسيين . ورغم هذا الفقر البادى فان كوبا تشتهر بالايس كريم ذلك لان الامريكيين حين خـرجوا من كوبا اغلقوا كل فروع هوارد جونسون التى كانت تبيـع الايس كريم ، وسأل كاسترو : كم صنفا كان جونسون يعد لنا من الايس كريم ، فقالوا له : ٢٨ صـنفا ، فقال اذن اعدوا لنا ٢٩ صنفا من الايس كريم !

وليس فى كوبا بقشيش .. هذا على الورق ، أما فى الواقع فالندل ــ جمع نادل ــ يقبلونه وهم يطوونه فى اكفهم ، ويخفونه فى جيوبهم ... حتى لا يراهم احد ! ..

وفى مدارس الاطفال مائة الف طفل يتناولون وجبة

طعام يوميا ، والوجبتان ساخنتان وكاسترو يطوف بنفسه ليرى المطابخ التى تطهو هذا الطعام فيوصي بالجودة وحسن الخدمة ، لانه يعتبر الطعام فى السن المبكرة هو عملية التاسيس الصحية للكوادر التى تحمى نظامه فى المستقبل .

والواقع أن العناية الطبية المجانية ومحاولة حل مشكلة الاسكان ـ في حدود ضيقة خاصة بالنسبة لسكان أعشاش الصفيح ـ رفع مستوى الانسان فى كوبا ، وبالتالى رفع مستوى استهلاكه للسلع . وتكونت طبقة عندها تطلعات لسلع أكثر ، ولسلع أحدث .. خاصة عندما رأت هذه الطبقة انماط السلع التى يستعملها الكوبيون المهاجرون الذين فتحت لهم كوبا الباب لزيارة اهلهم .. كان يتوافد على الجزيرة مائة الف كل عام . وكانوا يثرون خزانة الدولة لان كل واحد يدفع ٥٠٠ دولار تاشيرة الدخول ، وكل مايجيىء به من بضائع فهو يصادوه وعليه أن يشترى بالدولارات من الجمرك على الفور ـ أى انه يدفع ١٠٠ ٪ من الثمن جمركا مقنعا ـ وكان التليفزيون الامريكى يصل الى العيون الكوبية . ويرى الكوبيون بذخ الحياة الامريكية ، ولهذا تعالت همهمات الاحتجاج فسمعها المنظرون واشاروا بسوق جديدة سموها سوق الفلاح يبيع فيها الفلاح انتاجه فتحقق مزايا عديدة ، منها مثلا أن تقضي على السوق السوداء بزيادة العرض ، ومنها ثانيا أن تنخفض الاسعار طبقا للنظرية الراسمالية ، وان جرى الاستفادة بهذه النظرية دون اعلانها ـ ومنها انها ترضى نهم الفلاح . وتزيل الجفوة

بينه وبين العامل لان هذا الاخير ينظر الى الفلاح فى ريبة ويكاد يتهمه بأنه مستغل صغير ...

ولكن سوق الفلاح لم تحقق نجاحا يذكر ، فالوسطاء هم الذين سيطروا عليها ، اذ يشترون من الفلاح بسعر ويبيعون للمستهلك بضعفه ، والفلاح ضن بانتاجه على الدولة وقال لماذا ابيع البصل بخمسين سنتافو للرطل اذا كنت أستطيع أن أبيعه بضعف هذا المبلغ فى السوق .. ومن السلع ماقفزت أسعارها قفزات خيالية مثل الثوم حتى بلغ سعر رأس الثوم دولارا ، ووجد الثوم رغم هذا من يشتريه ، وتفشت طبقة الدلالات وزاد ثراؤهن حتى هاجمهن كاسترو فى واحدة من خطبه ، وقال أن منهن من يصلحن لبورصة الاوراق المالية فى نيويورك .. ووسعت السوق هذه الدخول وبينما استمتع من معه الدولار أحس بالحرمان من ليس معه ، ولم يتحقق التلاحم بين العامل والفلاح لان الاول ازداد يقينا بان الثاني بورجوازى مستغل ، ونشأت طبقة المنتفعين بالسوق وكأنهم اغنياء الحروب واغنياء الانفتاح فاشتروا بقايا سيارات الشيفروليه ـ موديل ماقبل ١٩٦٠ ـ بعشرين الف دولار للسيارة ، ونشرت الصحف اعلانات بطلبات مبادلات شقة صغيرة بشقة كبيرة ، وصارت الدولة تتسلم من الفلاح أسوأ ماينتج لانه يحتفظ بأحسن ماعنده ليبيعه فى السوق ، وازدادت همهمة المحرومين الذين قالوا ان كوبا أصبح فيها طبقتان ، طبقة البطاقات ، وطبقة سوق الفلاحين .. وقالوا : هل هذا هو المصير بعد عشرين عاما ؟ هل هذه هى العدالة التى وعدنا بها كاسترو ؟

فى ٢٨ فبراير عام ١٩٨٢ اكتسح البوليس أثنى عشر

سوقا في هافانا .. وعشرات الاسواق في المدن الصغيرة وصادر بضائع بالملايين ، وسميت العملية عملية العصفور فوق السلك وهي بالاسبانية بيترى ان الآمرا ، وكشفت هذه الكبسات البوليسية عن البضائع المهربة والمسروقة والمنقولة دون تراخيص ، واختفي اللصوص فلم يبق الا باعة الزهور ، وخاف الفلاحون البيع للوسطاء أو النزول بسلعهم الى الاسواق فقرروا أن يبيعوا من ارضهم وأطلق كاسترو على الظاهرة أنها بورجوازية جديدة والسوق وسيلة لرأسمالية لحل المشكلات ولهذا أفسدت الحياة الكوبية !

وفرضت الدولة ٥٠٪ ضرائب على مايباع في السوق بعد أن انكمش المعروض فيها ، وقد أرادت بهذا أن تغرى الفلاح بالبيع لها خاصة أنها زادت سعر الشراء منه ، وتنحت عن سياسة الغضب وبدأت تستعمل الملاينة في اقناع المزارع الجماعية بالبيع للدولة ..

وبين كل هذه الاسواق الرمادية والسوداء والفلاحية وبين طوابير حملة البطاقات وهم لا يعرفون هل سيأخذون كل ما في البطاقة من السلع .. وماذا سيأخذون من حجمها ؟.. وبين المناقشات الحادة حول كيف يوزع الرغيف على عشرة ملايين ، وكيف يقدم كاسترو مائدة تشبع البطون فان هناك الى جانب السخط هذا النوع من العناد العظيم الذى ربما كان سببه العزة القومية .. ذكر ميديا بنيامين وجوزيف كولينز وميشيل سكوت وكلهم خبراء تغذية من الامم المتحدة قاموا ببحث عن الغذاء في كوبا هو ماجعلته مرجعي في هذا الفصل من كتابهم في كوبا .. ليس الغذاء مجانا ، ذكر الثلاثي

الدءوب هذه القصة : أرسل ريجان وفداً يجمع معلومات من كوبا ليستعملها في حملته عليها ، فعاد الوفد بلا نتيجة ، وغضب ريجان ، وقال : ماذا حدث ؟ ماذا رأيتم فقالوا له : ليس في كوبا بطالة ولكنهم لا يعملون ، وهم لا يعملون ولكنهم يحققون الخطة الانتاجية وهناك بضائع ولكنك لا تكاد تجد شيئا تشتريه ، لا شيء تشتريه ولكن عند كل واحد مايكفيه ، وكل واحد عنده ما يكفيه ولكنه يشكو ، وكل واحد يشكو ولكنه يذهب الى الحــرب ليضحى من أجل كوبا وفيدل كاسترو .. ثم يعودون الى البيوت ويشكون . وهكذا ترى ياسيدى الرئيس أن عندنا معلومات كثيرة ولكن بلا نتائج !

حسابات أمريكية وسوفييتية عربية فى مواجهة اسرائيل !!

نحن العـــرب نطرح اذا ذهبنا الى دولة من الدول سؤالا :

ــ ترى ماموقفها من اسرائيل ؟

فنحن عاطفيون ، وتكاد نبلور لانفسنا مشاعرها من اقبال أو صد .. ومن حب أو كراهية ، ومن رضا أو سخط على قدر موقف الدولة من اسرائيل ، وقد ننزع من انفسنا الموضوعية ونحن نصدر الاحكام السريعة ، وكوبا من الدول القليلة التى تقلبت نحوها مشاعرنا مع تقلب مواقفها من اسرائيل .. بل لعلها من الدول القليلة التى انتهجت مع اسرائيل سياسة تنبع من مصالحهـــا الذاتية دون كل الدول الدائرة فى فلك الســـياسة السوفييتية ، وعندما قطع الاتحاد السوفييتى علاقتـــه باسرائيل بعد عدوان عام ١٩٦٧ .. تبعته فى ذلك أكثر دول الكتلة الشرقية .. ربما كلها فيما عدا رومانيا ، وهنا قال كاسترو :

ــ انا لا أحذو حذو احد .. لو كان لابد أن نقـــاطع المعتدى فان عدوان الولايات المتحدة الامريكية على فيتنام سافر فقولوا لى لماذا لم يقاطعها العالم ؟!

والقصة ــ قصة العلاقات الكوبية الاسرائيلية ــ بدأت بصداقة حميمة بين حكومة كاسترو واسرائيل ، فحزب العمل الحاكم فى اسرائيل يمد يده بالصداقة لـــكل

الأحزاب الاشتراكية .. بل والشيوعية .. مع انه يقيم اقامة كاملة فى خندق الرأسمالية الامريكية ، ولكن ثورة كوبا كانت معجبة بثورة ٢٣ يوليو ، وكان كاسترو لايتردد في القول بأنه تأثر بها وتعلم منها ، وقد خطب ودها بزيارة رأؤول كاسترو لمصر . فلما التقى بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر عام ١٩٦٠ فى دورة الامم المتحدة بنيويورك لم ينعكس هذا عداء على اسرائيل ، ولم يكن منطق كوبا اننا صافحنا عبد الناصر بيد فصفعنا اسرائيـــل باليد الاخرى ، يقول يورام شابيرا فى كتاب « كوبا والعالم » ان الصحف الكوبية ـ وهى حكومية ـ كانت شـديدة الاعتدال فى الحديث عن اسرائيل ، وهذا مانقله عنهـا الاسرائيليون الذين زاروا كوبا ، وبقى لليهود الكوبيين حق الهجرة الى اسرائيل ، وكانت لهم معاملة الافضلية بين المهاجرين ، فهم يستطيعون اخذ ممتلكاتهم الشخصية ، ونفائسهم من المجوهرات واللوحات . وكانت الطـائرات الكوبية تنقلهم الى أسرائيل ، وكانت كوبا تعفيهم مـن رسوم المغادرة .. وهى رسوم عالية على كل مهاجر ، كل هذا رغم أن اليهود لم يكونوا من المستمتعين بحب رجل الشارع الكوبى الذى كان ينفر منهم ويسميهم الجيسانوس ـ اى الدود !

وعندما مات بن زفى وهو أول رئيس أسرائيلى عام ١٩٦٣ اعلنت كوبا ألحداد لمدة ثلاثة أيام !

والواقع ان رجالا اذكياء هم الذين مدوا هذا الجسر الودود بين كوبا واسرائيل ، وعلى رأس هؤلاء سنـليبر القائد السابق لحركة الشباب الصهيونى الشـيوعى ـ الهاشومير هاتزاير ـ وهو من ترك كوبا الى اسرائيل عام

١٩٤٩ ! كان سليبر زميلا لكاسترو فى الجامعة ، وقد عاد لزيارة كوبا فى أوائل الستينيات بعد ان اصبح فيدل سيد الموقف ، ووثق سليبر علاقات الصداقة مع عدد كبير من انصار فيدل كاسترو واعوانه . فضمن لاسرائيل مثلا مجموعة السيراماييسترا - اى مجموعة المناضلين مع كاسترو فى المقاطعة الشرقية . ومجموعات أخرى غير ماركسية كانت أكثر تعاطفا مع اسرائيل من الحزب الشيوعى الشعبى الذى كان يتلقى توجيهاته من موسكو - ولم تكن موسكو راضية عن اسرائيل - وتراسل سليبر مع كارلوش رافاييل رودريجز - وهو احد المنظرين الكبار فى الحزب الشيوعى الموحد .. ويسمونه سوسلوف كوبا - وكانت الرسائل تدور حول تكوين جمعية صداقة كوبية اسرائيلية فى كوبا تقابل جمعية تحمل نفس الاسم فى اسرائيل ، وقد تحمس رودريجز للفكرة .. بل بلغ من اعتدال كاسترو مع اسرائيل أنه عين فى أول مجلس وزراء للحكومة الكوبية يهوديا، هو انريك اولتسكى . وكان وزيرا للمواصلات وصحيح أنه لم يكن من الوزراء المهمين .. الا أنه كان عينا لاسرائيل فى قلب مجلس الوزراء المتفجر بالحماسة فى كل قرار يتخذه !

مؤتمرات كوبا تهاجم اسرائيل

والواقع ان سياسة كوبا واسرائيل لم تبدأ بكاسترو . ان اسرائيل سعت لتوثيق علاقاتها مع الحكومة الكوبية وكان هدفها اقناع هذه الحكومة باتخاذ مواقف ضد

العرب ، واكثر من هذا بأن تقنع الدول الراديكالية ـ بما لها من وزن في الحركات اليسارية في أمريكا اللاتينية ـ ومن أجل هذا قدمت اسرائيل التكنولوجيا الى حكومة باتستا ، وبدأت تدعو الكوبيين الى التدريب عندها وعين باتستا اول وزير مفوض في كوبا عام ١٩٥٨ فأرسلت اسرائيل أول قائم بالاعمال الى هافانا في نوفمبر عام ١٩٥٩ !.. أي بعد خلع باتستا !

وعندما زار ميكويان كوبا في فبراير عام ١٩٦٠ بدأ تحول كوبا للكتلة الشرقية وبالتالي بدأت تتعاطف مع القضايا العربية ، وتجاوز الموقف بين كوبا واسرائيل العلاقات الخاصة بينهما الى العلاقات بين الكبار .. أي بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الامريكية ، وكلما ساءت العلاقات بين كوبا والولايات المتحدة فانها تبرد مع اسرائيل . واسرائيل لاتريد أن تساند أمريكا وتعلن أنها تحاصر كوبا اقتصاديا معها ، ولكنها في نفس الوقت بدأت تتردد في تقديم التكنولوجيا لكاسترو . وعندما طار خوسيه باردولادا رئيس اذاعة وتليفزيون كوبا الى اسرائيل غضب الاتحاد السوفييتي .. رغم أن وزارة الخارجية الكوبية أعلنت أن الزيارة تمت بدون علم منها .. وهكذا أصبحت العلاقات بين كوبا واسرائيل مثل خيوط العنكبوت !

من الأساليب التي انتهجها كاسترو ليرفع عنه حصار الولايات المتحدة محاولته تقلد دور قيادي في العالم الثوري ، والعالم اليساري ، وكان هذا يدعوه الى أن يفتح ابوابه لمؤتمرات كثيرة كانت اسرائيل تتعرض فيها للتجريح والهجوم ، ولكن كوبا كانت حريصة على

مشاعر اسرائيل ، وكانت تقدم لها التفسيرات التى تصل الى حد الاعتذارات بعد كل مؤتمر ، حدث فى مؤتمر القارات الثلاث ـ اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ـ الذى انعقد فى يناير عام ١٩٦٠ ان ارسلت حركات التحرر فيها وفودا لهذا المؤتمر وهذه الوفود طالبت بادانة اسرائيل لانها صهيونية استعمارية عنصرية فاشية ، ونادى المؤتمر بالتصدى للتغلغل الصهيونى ، وطالب بقطع كل العلاقات مع أسرائيل ، وطردها من كل المنظمات والمحافل الدولية وتأييد المؤتمر لمنظمة التحرير الفلسطينية فى الحرب المقدسة التى تخوضها ، وقد تحفظت بعض الدول على هذه المطالب ، او صمتت ، وبعضها تغيب عن الجلسات مثل وفود أورجواى والارجنتين وشيلى .. بل والاتحاد السوفييتى ، وشرح المسئولون الكوبيون لشلومو ليفاف وزير اسرائيل المقيم فى هافانا أن كوبا غير مسئولة عن قرارات المؤتمر .. واكثر من هذا أنها غير ملتزمة بها ، وأن وفود المؤتمر تمثل الحركات التحريرية والمنظمات الشعبية ولا تمثل الحكومات الرسمية .. وأن المطبوعات التى أصدرتها كوبا عن المؤتمر أسقطت ادانة الصهيونية ودولة اسرائيل ..

وفى مؤتمر تضـــــامن دول أمريكا اللاتينية ـ فى اغسطس ١٩٦٧ ـ خطب كاسترو فى نهاية المؤتمر فادان الاعتداء الاسرائيلى والاستعمار الامريكى. ولكنه أعلن فى نفس الوقت أن كوبا لن تقطع علاقاتها مع اسرائيل رغم أن كل الدول الاشتراكية فيما خلا رومانيا قطعت هـذه العلاقات .. لان كوبا لم تقطع علاقاتها مع البانيا عندما تسابقت الدول الاشتراكية لهذا بعد أن انحازت البانيا

لمعسكر الصين الشعبية . وفى حديث للنوفيل أوبزفاتير الفرنسية قال كاسترو أن كوبا تدين عدوان اسرائيل ولكن قطع العلاقات مع الدول المعتدية ليس قاعدة دولية وأنتقد كاسترو تهديد العرب لدولة اسرائيل بابادتها والقائها فى البحر .. وقال أن الولايات المتحدة هى المحرضة لاسرائيل على العدوان .. ثم قال ان الدرس المستفاد من الشرق الاوسط وواقعه الاليم هو أن الدولة لا يحميها أحد اذا لم تستطع هي أن تحمى نفسها !

وفى يناير عام ١٩٦٨ انعقد المؤتمر الثقافى الدولى فى هافانا ، وتقدمت الوفود العربية بقرار ادانة للامبريالية والصهيونية ، وهددت هذه الوفود بالانسحاب من المؤتمر اذا لم يصدر القرار ، وقد اعترضت بعض الدول على الصياغة الحادة للادانة ، وفى الكواليس والاتصالات الجانبية أوعز الوفد الكوبى لوفود كوريا الشمالية وفيتنام بحذف القرار العربى !!

ولكن الصحافة الكوبية كانت تتعاطف مع العرب وتنشر البيانات والتعليقات المتعاطفة كلما زار مسئول عربى كوبا ، وبالمقابل كفت عن تعاطفها مع اسرائيل ، بل واصبحت كوبا عمليا ملتقى للوبى العربى مع الدول اللاتينية ذات الفكر اليسارى ، وكانت الصحافة الكوبية تتغنى بالقضية الفلسطينية ، وتطنب فى شرح شرعية كفاحها ، بل من صحف كوبا من أصبح يهاجم الدول العربية الرجعية لصالح الدول العربية التقدمية !

وقد زار كوبا فى يوليو عام ١٩٧٠ أول وفد من منظمة فتح . واتفق في هذه الزيارة على أن تتولى كوبا تدريب بعض الكوادر الفدائية ، وفى هذا الوقت رفعت

١٧ دولة في أمريكا اللاتينية درجة تمثيلها الدبلوماسي مع اسرائيل الى مستوى السفارة ، ولكن كوبا لم تفعل وبدأ حجم التجارة بين كوبا واسرائيل ينكمش حتى قيل أن ملفات اسرائيل التجارية اختفت من هافانا ، وزار كوبا علماء اسرائيليون وخبراء ولكن بصفة غير رسمية .. لان كاسترو أبقى على علاقة خاصة مع صديقه سوبيرانا الذى كان فى كوبا أيام الثورة وقد ساعد كاسترو ضد باتستا . وكان سوبيرانا حريصا على أن يطلع كاسترو على تكنولوجيا اسرائيل ، وكان كاسترو ضعيفا أمام هذه التكنولوجيا لانه يعرف أنها ذات هوية أمريكية فى الإساس . وتدرب الكوبيون فى جامعة راحابوت على وسائل الرى الحديث وزراعة الاسماك ..

اى أن خيطا بقى .. وبقايا جسر ظلت بين الدولتين .. ولكن مؤتمر عدم الانحياز الرابع الذى عقد فى الجزائر فى سبتمبر عام ١٩٧٣ قطع الخيط ونسف الجسر ، ففى هذا المؤتمر أعلن كاسترو قطع علاقاته مع اسرائيل ، وكان الامر مفاجأة كاملة للحكومة الاسرائيلية ولسفير كوبا فى تل ابيب . وقيل وقتها أن كاسترو كان مضغوطا بموقف القذافى الذى كان يريد أن يبعده عن مجموعة عدم الانحياز .. لانه ـ أى كاسترو ينحاز للاتحاد السوفييتى ـ وقالت جريدة الجرانما الكوبية أن موقف كاسترو ينسجم مع عدائه للعدوان الامريكى الاسرائيلى منذ البداية ، وتصعيد الموقف بقطع العلاقات له مايبرره لان اسرائيل رفضت الجلاء عن الارض المحتلة .. ثم .. ثم أن كاسترو استجاب لمشاعر دول عدم الانحياز فى الجزائر .

وتحول كاسترو بعد هذا التاريخ الى خطيب ضد اسرائيل كلما سنحت له الفرصة . وهو فى هذا تجاوز الموقف السوفييتى الذى كان يحرص على الاعلان عن حق اسرائيل فى الوجود داخل حدود آمنة ..

واصبح ياسر عرفات رجل كاسترو المدلل المحترم ، ولم يكن مايفعله كاسترو لوجه الله أو لوجه العرب ، فالعرب أهل كرم .. ومن يمد لهم يدا يمدون له الأيدى العرب دعموا موقف كوبا فى العالم الثالث .. وقد كان كاسترو يبحث عن دور فى هذا العالم . والعرب دعموا دعم كاسترو للسوفييت فى مؤتمرات عدم الانحياز ، وهذا دور يقبض كاسترو ثمنه معونات ومساندة من الاتحاد السوفييتى ، وقد انتظمت كوبا فى التصويت ضد اسرائيل لصالح العرب ، بل فى بعض الأحيان كانت تعد قرارات ادانة لاسرائيل تنافس بها قرارات السوفييت واليوغسلافيين والالبان .

اليهود ومدرسة اينشتاين !

والمعروف أن عدد اليهود فى كوبا بلغ اثنى عشر الف نسمة عشية الثورة .. فصار فى عام ١٩٧٥ .. ١٤٠٠ .. ونسبة من تجاوزوا سن الستين منهم تبلغ ٣٠٪ ، ومثل هذه النسبة من الشباب الذين لا يعرفون عن اليهودية الا القشور لانهم انخرطوا فى طلائع الثورة ، ولأن الرابى اليهودى اختفى وهو من يوفر للقيادة الروحية ، ولم يكن كاسترو يمنع يهود كوبا من الاتصال بيهود العالم أو الحفاظ على تقاليدهم .. وكسب كاسترو بهذا الموقف تعاطف المؤتمر اليهودى العالمى معه ، وقد قال احد اليهود الذين زاروا كوبا عام ١٩٧٥ ان فى هافانا خمسة

من السيناجوج .. وفى سنتياجو وكوبا سيناجوج ..
وكلها مفتوحة الابواب ، والدولة تدفع ايجاراتها ومدرسة
البرت اينشتاين تعمل بانتظام ، والدولة تقدم لتلاميذها
وجبات ساخنة ، اما الاتحاد الصهيونى فى كوبا فقد
ظل يعمل بغير توقف ، وقد حصل على تصريح باقامة
احتفالات بمناسبة مرور ربع قرن على انشاء دولة اسرائيل
ـ عام ١٩٧٤ ـ وقد قيل أن تسامح كاسترو مع
اليهود كان غزلا ذكيا لاوربا الغربية والولايات المتحدة ..
كما انه لم يكن يرى فى يهود كوبا أى خطر .. لانهم
لم يكونوا من العدد أو القوة بحيث يشكلون هذا الخطر ..

صورة كاسترو تهتز !

على أن الشىء الذى لايمكن اغفاله هو ان موقف
كاسترو المتطور من الصداقة مع اسرائيل الى العداء
السافر .. لم يكن ملاحقة او مجاملة لتبعيته للاتحاد
السوفييتى .. بل لعله عطل قطع علاقاته مع اسرائيل
عام ١٩٦٧ ليقول للعالم أنه صاحب قرار مستقل وانه
لا يتلقى التعليمات من الكرملين . موقف كاسترو من
اسرائيل نابع من طموحه لزعامة خاصة فى العالم الثالث
واهم مناطق العالم الثالث منطقة الشرق الاوسط .

وقد شاهدت العلاقات العربية الكوبية تطورات
ايجابية صاعدة فى حين كانت العلاقات الكوبية الاسرائيلية
هابطة ، ولعل أول دولة ارتبطت بكوبا فى المنطقة هى
مصر .. التى بدأت بافتتاح مفوضية فى كوبا عام
١٩٥٨ . وصارت المفوضية سفارة فى سبتمبر عام
١٩٥٩ . وقد أيدت مصر ثورة كاسترو لان من مبادىء
ثورة يوليو تأييد كل ثورات التحرير فى العالم .. وامعانا
فى التأييد اشترت السكر من كوبا لمواجهة المقاطعة

الاقتصادية الامريكية لها . وادانت مصر غزو خليج الخنازير وايدت انضمام كوبا الى مجموعة عدم الانحياز !
وبعد حرب عام ١٩٦٧ حدث فتور فى العلاقات بين مصر وكوبا خاصة أن كوبا أدانت قرار وقف اطلاق النار الذى قبلته مصر .. كما انها — أى كوبا — لم تقطع علاقاتها مع اسرائيل أسوة بالدول التى فى الفلك السوفييتى .. بل غضبت كوبا من مصر حين قبلت مبادرة روجرز ، وعادت فغضبت عندما جاء الرئيس الراحل أنور السادات وصفى مراكز القوى لانها تقدمية . وغضبت كوبا أيضا من مصر لأنها ساعدت السودان فى القضاء على الانقلاب وتجاهلت ان معمر القذافى هو الذى وشى بطائرة هاشم العطا وصحبه !
ولكن العلاقات تحسنت بعض الشىء .. وزال الغضب عندما نشبت حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ وقد أرسلت كوبا الى سوريا ٧٠٠ جندى كوبى وضعتهم سوريا فى الصفوف الخلفية .. وكانوا رمز مشاركة .. وان لم يشتركوا فى القتال فعلا .. وغضب كاسترو من بدء مصر أحاديثها مع الولايات المتحدة ، وحذر من الاتصال بكيسنجر — على وجه الخصوص — وعندما وقعت حوادث الحدود بين مصر وليبيا .. حين بدأت القوات الليبية عدوانها على الحدود المصرية فردتها القوات المصرية ولقنتها درسا طالبت كوبا مصر بوقف العمليات العسكرية ، وقيل وقتها أن كوبا تدخلت فى القتال بقوات لها فى ليبيا ، وقيل أيضا ان هذه القوات الكوبية هى التى تبنى السور الذى قال القذافى انه سيبنيه على الحدود بين مصر وليبيا .. عبر الصحراء الغربية .. وكل

هذا جرى تداوله فى الشارع المصرى ونال من صورة كاسترو عند الشعب المصرى !

وبدأت مصر تجاهر كوبا برأيها فى تدخلاتها فى افريقيا . فقد أدانت مصر مساندة كوبا لاثيوبيا فى حرب الاوجادين ، وأحداث شابا بزائير .. وردت كوبا على هذا بادانة كامب دافيد .. ثم طورت هجومها فاستعملت ألفاظا تستعملها اذاعات عربية متشنجة أو مجنونة ، فاستعملت ألفاظ العمالة والخيانة ضد مصر . وعندما انعقد مؤتمر عدم الانحياز فى هافانا ـ قمة عام ۱۹۷۹ ـ كانت هناك مؤامرة لتعليق عضوية مصر فى مجموعة عدم الانحياز ، وفى البداية بدا أن كوبا تؤيد هذا الاتجاه ، ولكن كاسترو أحس بمسئولية تاريخية جسيمة ان وافق على أن تحدث فى هافانا خطوة مثل هذه .. ونشطت الدبلوماسية المصرية فأجهضت محاولة تجميد عضوية مصر ..

وحدثت فى العلاقات المصرية الكوبية انفراجة بعد هذا المؤتمر .. بدليل أن كوبا أيدت ترشيح مندوب مصر لمنصب المفوض العام لشئون اللاجئين فى الامم المتحدة ، وبدليل أن مصر زادت ماتشتريه من السكر من ١٢٥ ألف طن الى ١٩٠ ألف طن ـ وهذه الكمية ثمنها ٥١ مليون دولار . وهذا يعطى صورة لحجم العلاقة التجارية بين البلدين خاصة أن السكر ليس السلعة الوحيدة التى تشتريها مصر بينما تدنت العلاقة التجارية بين اسرائيل وكوبا الى مليونى دولار .. ثم تلاشت العلاقة . وهناك معالم اتفاقية تبادل تجارى بين البلدين على أساس المقايضة .. وهى حل أمثل للدولتين لان كوبا تعانى من

ازمة العملة الصعبة ومصر كذلك ، وهناك بروتوكولات للتعاون بين البلدين فى مجالات صناعة السكر والثروة الحيوانية .. بل تقدمت شركة كوبية لمناقصات فى مجال انشاء مساكن شعبية فى مصر .. وأهدت مصر كوبا أربعة تماثيل فرعونية للمتحف الكوبى .

تستطيع أن تقول أن العلاقات أصبحت هادئة بين كوبا واكبر دولة عربية .. ولكنها علاقات نشطة ومتفجرة بالحيوية بين كوبا والجزائر مثلا . وقد ساعدت كوبا جبهة التحرير الجزائرية فى حربها ضد المغرب . أرسلت اليها ثمانمائة جندى .. وصحيح انهم لم يقاتلوا لان وقف اطلاق النار اعلن يوم وصولهم ولكن الجزائر حفظت لكوبا معروفها . وقد نقلت كوبا جنودها الذين أرسلتهم الى سوريا فى حرب ١٩٧٣ الى انجولا ، وارسلت المستشارين الى اليمن الجنوبية ، ودربت قوات جبهة ظفار المناوئة لسلطنة عمان .

وقفة مع منظمة التحرير !

فى نهاية السبعينيات .. وكاسترو يدعم دوره فى العالم الثالث بدءا بمنطقة الشرق الاوسط زادت كوبا رقعة التمثيل الدبلوماسي مع العرب . فأقامت علاقات مع الكويت والاردن والعراق . وفى يونية عام ١٩٧٧ أيدت جبهة البوليزاريو فى صراعها ضد المغرب ، وأرسلت لها أطباء . وكان رد فعل المغرب هو قطع علاقاتها مع كوبا فى عام ١٩٨٠ .. ثم اجتثت كل ما لكوبا على الارض المغربية عام ١٩٨٥ حين اغلقت قسم رعاية المصالح ! وفى

نفس العام بدأ التمثيل الدبلوماسي بين كوبا وسوريا .
وتقف كوبا موقفا محايدا من الانشقاقات في منظمة التحرير ، وهي بهذا المسلك تريد أن تحتفظ لنفسها بدور الوسيط الذي يمكن أن يوفق بين الاطراف .. وهي لم تنجح في هذه المهمة كما أنها لم تنجح في مهمة أخرى هي الوساطة في الحرب بين العراق وايران .. مما يذكر أن لمنظمة التحرير الفلسطينية بعثة وسفيرا مقيما في هافانا . وقد توترت العلاقات بين كوبا وياسر عرفات بعد أن زار الاخير القاهرة بعد خروجه من لبنان فقد هاجمت كوبا الزيارة .. وبعد ذلك لم تؤيد اتفاقية عمان ، ثم مالت لتأييد بعض الحركات الانفصالية وهو مايخرجها عن وضعها الحيادي الاول .. ورد ياسر عرفات على هذا بأن رفض منحة كوبية للمنظمة !

وعندما بدأت العلاقات بين الاتحاد السوفييتي وعمان كفت كوبا يدها عن مساعدة ثوار ظفار ، وقد افتتحت كوبا سفارتها في السودان عام ١٩٨٠ ، ولكن السودان طرد أعضاء السفارة بعد وصولهم لاتصالهم بزعماء جبهة اريتريا ..

والصومال غاضبة من كوبا .. وعلاقاتها معها مقطوعة لان كوبا تورطت في مساعدة اثيوبيا عسكريا في حربها ضد الصومال ، وقد كانت عمليات كوبا في القرن الافريقي نشطة في عام ١٩٧٧ . ففي هذا العام تنبه العالم — وكأن فجأة أو لاول مرة — الى أهمية الجغرافيا السياسية للقرن الافريقي ، فهو يتحكم في مدخل البحر الاحمر الجنوبي ، وفرنسا تريد اعطاء جيبوتي استقلالها والعلاقات بين اثيوبيا والولايات المتحدة تتمزق ، والخلافات بين اثيوبيا والصومال تشتد ، والمبادرة في

ايدى السوفييت ، فى هذا الوقت تجول كاسترو جولة طويلة فى المنطقة بادئا بليبيا التى اقتربت كثيرا من الاتحاد السوفييتى منذ طرد انور السادات الخبراء السوفييت من مصر وظهر كاسترو فى عدد من الاجتماعات الثورية الشعبية . وكلها مكرسة للهجوم على مصر .. وفى القاهرة كانت لقاءات الافارقة مع العرب لبحث تضامنهم ، وبعد هذا التقى الاسد والسادات والنميرى فى الخرطوم لبحث أمن البحر الابيض وكيف يكون بحيرة عربية صرفة خالصة . وبدا القذافى معزولا .. ووقتها قال كاسترو : أن محاولات الامبريالية لعزل ليبيا سوف تبوء بالفشل .. فليبيا لم تعزل ولن تعزل .

ومثلما ورط كاسترو نفسه فى المواقف بين العرب وهم أشقاء ـ مثل البصلة وقشرتها ـ ورط نفسه فى الموقف اللبنانى فاعلن أنه يدين التواجد السورى فى لبنان . ولم يكف ألا عندما احس أن هذه النغمة تغضب الاتحاد السوفييتى الحريص على مشاعر حافظ الأسد ..

وزار كاسترو فى جولته اليمن والصومال ، وقتها كان الصومال اقرب الاصدقاء الى السوفييت ، ثم زار اثيوبيا وقال أنه ذاهب للوساطة بينها وبين الصومال، ولكنه لم يحقق بوساطته شيئا . وعندما خرج الامريكيون من اثيوبيا بعد انقلاب مانجستو حل محلهم السوفييت ووصلت قوات من كوبا لتساند النظام الاثيوبى ، واستقبل العرب هذا التواجد الكوبى المسلح بتوجس أن النظرة للبحر الاحمر هو أنه بحيرة عربية ـ خاصة بعد أن انضمت جيبوتى الى الجامعة العربية ـ ومن ناحية اخرى فان اسرائيل تكره هذا الحصار العربى حول اثيوبيا .. لانه يفقد مصوع وعصب اهميتهما ، وقد يغلق البحر الاحمر

فى وجه سفنها .. وضع فى الحسبان أن حربين من أربع حروب بين العرب واسرائيل بدأتا بسبب اغلاق مضيق باب المندب .. وبينما تريد اسرائيل أن تساعد اثيوبيا ـ والحلف بينهما قديم وقد دفع أقباط مصر ثمنه بدير السلطان الذى سلبته اسرائيل من الكنيسة القبطية واعطته للرهبان الاثيوبيين ـ بينما تريد اسرائيل أن تساعد أثيوبيا فان سوريا والعراق تريدان مساعدة الصومال .. وليبيا ساعدت أثيوبيا .. بدت الخريطة محيرة ، وبدت السماء ملبدة بالغيوم !

ولكن الخط الوحيد الواضح الذى انتهجته كوبا بعد أن وقع الصدام بين أصدقاء السوفييت فى المنطقة أن عليها أن تقف مع الاصدقاء الصغار .. لان هذا يقوى ساعد السوفييت فى المنطقة ، ويعطى الاصدقاء الصغار برهانا على أن الاتحاد السوفييتى لن يتركهم .. ذلك أن القوات الكوبية كانت تنوب فى وجودها عن القوات السوفييتية .. لان هذه الاخيرة لا تتجاوز حدود بلادها الا لافغانستان .. وهى ضرورة قصوى !

على ان كوبا اكتشفت بالدراسة والتحليل والتجربة أن تورطها فى منطقة الشرق الاوسط ليس له عائد سياسى كبير ، وانها أن قامت بدور فهو لحساب السوفيت وثمنه المدفوع كما قلنا هو دعم السوفيت لكاسترو فى مواجهة الولايات المتحدة التى تتربص به الدوائر ..

وعلاقة كوبا مع الاتحاد السوفييتى من أوثق العلاقات التى عرفتها السياسة الدولية ، لا تضاهيها الا علاقة اسرائيل بالولايات المتحدة ..

كوبا بين حصار بالمقاطعة
وحصـــــار بالمســانــدة !

التقى فى هافانا كارلوس اندريس بريس الرئيس الفنزويلى السابق بفيدل كاسترو ، ودار بينهما حــوار حاد فقال كارلوس لكاسترو :

ـ أنت أداة في يد السوفييت

فأجاب كاسترو بمرارة :

ـ بل انا ضحيتهم !

ولكن الواقع أنه ضحية الامريكيين أولا ، أننا عرفنا البدايات الاولى عندما أثاروا كرامته للتجاهل وبمعاملته على أنه مغامر غرير سوف يقع على قدميه حتما . وقطعوا عنه القمح والبترول ، وتركوا له السكر فى المخــــازن يأكله النمل أو يلقون به فى قاع البحر .. حاصروه مع ١١ دولة غربية ، ثم البوا عليه دول أمريكا اللاتينية ـ أسرته الغربية ـ فأصبح معزولا .. وقد وجد طــوق النجاة فى زيارة ميكويان الذى اشترى منه كل الســكر ووعده بكل السلاح ، وأصدر كاسترو قرارا بالاستيلاء على الممتلكات الامريكية فى كوبا .. فهو بدوره صب على النار زيتا ، وشنت عليه الولايات المتحدة حملة خليج الخنازير فلما أخفقت رد على الولايات المتحدة بتحــركه المساند للاحزاب الشيوعية فى أكثر دول امريكا اللاتينية .. كأنه يتفنن فى اضافة الاحجار الى الطريق المسدود ، ولم يخف كاسترو انه يمارس هذا النشاط ضــــد الديمقراطية فى الدول اللاتينية .. كأنما كان يعطــى

للولايات المتحدة مايؤيد شكوكها في أن الاتحاد السوفيتي لا يسانده لوجه الله ، بل يسانده لانه سيكون راس الجسر المنطلق الى هذه القارة التي ظلت مغلقة في وجه كل الدول .. الا الولايات المتحدة الامريكية . وعندما حدثت أزمة الصواريخ وانصاع خروشوف لطلب الرئيس كنيدي فخلع الصواريخ ونقلها من كوبا ، غضب كاسترو واعتبر مافعله السوفييت دون تشاور اهانة له ، وفي نفس الوقت اعتبره تراجعا في تأييد الاحزاب الشيوعية في أمريكا اللاتينية ، والواقع أن خروشوف كان يحس أن كنيدى لن يتردد في غزو كوبا واسقاط كاسترو ان لم ينفذ الاتحاد السوفييتي مطلبه ويسحب صواريخه . حكمة أدركها كاسترو بعد ذلك باعوام ، فسلم بأن الاتحاد السوفييتي كان على حق !

والواقع أن كوبا حاولت أن تستغيث بالدول الاوربية بعد المقاطعة الامريكية لها ، ولكن هذه الدول خذلت كوبا مجاملة للولايات المتحدة ، ولهذا لم يعد أمام كاسترو الا الاتحاد السوفييتي الذى اقبل ناشرا ذراعيه ، وفاتحا أحضانه ، وفي المقابل حلت اللغة الروسية محل اللغة الانجليزية ، مع أن هذه الاخيرة كانت تنافس اللغة الاسبانية على السنة الكوبيين ، واصبحت النظرة الى من يتحدثون الانجليزية نظرة ارتياب ـ فيما عدا من يعملون في حقل السياسة أو السياحة على أن تطور العلاقات الاقتصادية بين البلدين كان سريعا .. وكأنه كان مصيدة للايقاع بكوبا في حظيرة الاتحاد السوفيتي . ومثلما حاصرت الولايات المتحدة كوبا بالمقاطعة .. حاصرها الاتحاد السوفيتي بالمساندة .. أو بالعناق

الذى يحتوى السم .. ويزهق الانفاس .

وللارقام حديث لا يخطىء ، واذا كانت كوبا هى دولة السكر ، تنتج منه ٦ر٥ مليون طن سنويا ، فان ٣ر٦٥ مليون منها يذهب الى الاتحاد السوفييتى وقيمتها ٣ مليارات بيزو ، ومثل هذه النسب تنطبق على سلع اخرى تصدرها كوبا مثل النيكل والنحاس والموالح والخمور والتبغ والاسماك ، مجموع ماتصدره كوبا الى الاتحاد السوفييتى بلغ عام ١٩٨٤ ، ٧٢٪ من جملة ماتصدر ، ومجموع ماتستورده كوبا منه فى نفس العام بلغ ٦٦٪ ، والميزان التجارى يبقى دائما فى صالح الاتحاد السوفييتى ، وكان فى ذلك العام لصالحها بمقدار ٨٣٥ مليون بيزو ! ليس هذا فقط فان العلاقات الاقتصادية مع الكتلة الشرقية نشطت نتيجة لانضمام كوبا لهذا المعسكر فأصبحت صادرات كوبا الى هذه الكتلة تمثل ٧ر١٧٪ ووارداتها منها تمثل ١٨٪ .. والميزان التجارى فيه عجز لصالح الكتلة مقداره ٣٣٥ مليون بيزو !

فماذا بقى مما تصدر كوبا أو مما تستورد ؟.. قل ١٠٪ لما تصدر و ١٦٪ لما تستورد ، هكذا أصبح اقتصاد كوبا تابعا .. والاقتصاد هو دفة السياسة ، والشراع المثبت فى سفينتها !

و .. وقد كانت أسبانيا تعتبر الدولة الام لكل الدول اللاتينية ، وكان المنطقى والطبيعى ان تكون علاقاتها بهذه الدول فى المقام الاول من الاهمية .. غير أنها بالنسبة لكوبا تدنت الى المرتبة السابعة بعد أن اتجهت كوبا شرقا ..

ومضت المساعدات السوفييتية لكوبا جنبا الى جنب

مع العلاقات التجارية .. بل لعلها قفزت قفزات تعكس شيئين فى وقت معا : تعكس سخاء السوفييت على كوبا باعتبارها واجهة شيوعية يجب الا تسقط او تتداعى أمام أزماتها الاقتصادية ، والشيء الثانى أن كوبا لم يعد أمامها الا هذا الباب الاحمر تطرقه .. وتلقى بهمومها عند عتبته . ففى عام ١٩٧١ كانت المساعدات السوفييتية لكوبا ٥٧٠ مليون دولار .. قفزت عام ١٩٧٥ الى ١٠٦٤ مليون دولار ، وطارت طيرانا فى عام ١٩٧٩ لتصبح ٣١٧٨ مليون دولار أمريكى وفى عام ١٩٨٣ بلغت ٤٢٠٠ مليون دولار وقد ثبتت عند هذا الرقم الخرافى لعامى ١٩٨٤ و ١٩٨٥ .

والمساعدات السوفييتية هكذا تساوى ٣٠٪ من الناتج القومى الاجمالى لكوبا كما أن المساعدات التى تلقتها كوبا من دول الكتلة الشرقية قفزت من ١٨ مليون دولار عام ١٩٧٥ الى ٧٤٤ مليونا عام ١٩٨٣ ، واكثرها تدفعه دول هذه الكتلة لموازنة ميزانها التجارى مع كوبا اذا نقصت واردات تلك الدول من كوبا عن صادراتها اليها ..

واذا نظرت الى المساعدة السوفييتية لكوبا فانك تجد وعاءها يشتمل على مايلى :

أولا : مساعدات التنمية المباشرة ..

ثانيا : فروق أسعار النيكل والسكر التى يستوردها السوفييت من كوبا بسعر أعلى من السعر العالمى .

قد كان سعر الرطل من السكر عام ١٩٨٥ أربعة سنتات ، وسعر الرطل من السكر المصنع ٦٫٥ سنت .. أما السوفييت فقد اشتروه بـ ٣٨ و ٤٠ سنتا ! وفروق الاسعار تشمل ماتستورده كوبا من الاتحاد السوفييتى

من سلع فالبترول كان سعره العالمى ٢٨ دولارا عامى ١٩٨٤ و ١٩٨٥ .. وكوبا اشترته بعشرين دولارا فقط !

وفى نفس الوقت كانت مساعدات الغرب لكوبا تتعثر وتنكمش فقد بلغت عام ١٩٧١ « ٣ر٢ » مليون دولار كان أكثرها من السويد وهولندا وبلغت عام ١٩٨٢ « ٥ر١٦ » مليون دولار ! ومجموع ديون كوبا الان هو ١٣ مليار دولار ، للغرب منها ٥ر٣ مليار .. وللاتحاد السوفييتى باقيها .. والاتحاد السوفييتى لا يكف عن المساندة بالاموال والسلاح والمشروعات ، وهو - مثلا - يجرى انشاء أول محطة نووية لتوليد الطاقة الكهربائية فى شرق كوبا وهى محطة تبدأ ثمارها عام ١٩٩٥ لتوفر ٥ر٢ مليون طن بترول سنويا .

كاسترو .. الانتشار سريعا !

والاتحاد السوفييتى يعتبر كاسترو رجله الاول وراء الحدود .. ولكى يحافظ الاتحاد على حياة كاسترو زوده بعدد من رجال المخابرات السوفييتية المتفوقين ، وهؤلاء أشاروا بطرد عدد من رجال المخابرات الكوبيين فوافق كاسترو على الفور .. ولان كاسترو ارتبط بالاتحاد السوفييتى - ارتباط حياة أو موت - فان هذا أثر على سياسته الخارجية . واصبحت هذه السياسة متطابقة مع سياسة المعسكر الشرقى ، ومؤيدة تماما لكل توجهات السياسة السوفييتية ، وعندما تدخل الاتحاد السوفييتى فى تشيكوسلوفاكيا وبولندا وافغانستان والهند الصينية أيدت كوبا كل هذه التدخلات . وفقد كاسترو مصداقيته لانه أعلن غير مرة انه ليس تابعا للاتحاد السوفييتى وانه ينتهج سياسة تنبع من قلب كوبا .

وكان خروج القوات الكوبية من شواطىء جزيرة

التمساح ـ لانها فعلا على شكل تمساح ـ الى مهماتها الغامضة او المعلنة مع عدد من الدول الافريقية بتنسيق سوفييتى . ولعل أول هذه التدخلات كان فى انجولا عام ١٩٧٥ .. وان كان قد سبقها وصول هذه القوات الى سوريا خلال حرب ١٩٧٣ دون فاعلية ..

واذا كان التواجد الكوبى فى انجولا بشكله المكثف بدأ فى منتصف السبعينيات فان تحويم كوبا حول افريقيا ليتنفس فيها كاسترو بعيدا عن المتاعب ، ولينقب عن الانتصارات بعد أن ضيق الامريكيون الخناق على تحركاته داخل الدول اللاتينية .. هذا التحويم بدأ منذ عام ١٩٦٥ عندما حاول جيفارا اسقاط تشومبى منطلقا من الكونغو برازافيل .. وكان من الثقة بالنفس ـ التى بلغت حد الرعونة ـ بحيث أخذ ١٢٥ مقاتلا مدربين على حرب العصابات تدريبا عاليا ليسقط بهم تشومبى .. واخفق جيفارا ، ولكن هذه المجموعة هى التى حمت رئيس الكونغو برازافيل من محاولة انقلاب ضده .. وهكذا لم يعدم كاسترو الفوائد من هذه المغامرة المبكرة التى قادها جيفارا .

وعندما تعرض الرئيس سيكوتورى ـ رئيس غينيا ـ الى هجوم من الكوماندوز البرتغاليين ، وكان الهجوم على قصره ومقر اقامته .. دافعت عنه قوات كوبية . وقدم كاسترو المساعدات للمستعمرات البرتغالية فى غينيا بيساو وموزمبيق وانجولا .. وزود الثوار فى زيمبابوى وناميبيا ومالى ومالاوى والسنغال وتنزانيا واثيوبيا بالسلاح والمقاتلين . واذا كانت شهية كاسترو للشهرة تحرك قواته فالدافع الذى نعرفه هو أنه مدير عمليات لحساب السوفييت فى كل هذه البلاد وكل هذه

الواقع ، ان السوفييت وجدوا افريقيا ذات خروق كالجبن الجروييه . ولهذا أثروا أن يطاردوا فلول الاستعمار فيها ، على أن يحلوا محلها فى كل مواقع الانسحاب .. والمعروف أن قوات كاسترو فى آفريقيا كانت تكلفه كل صباح ثلاثة ملايين دولار .. فهل هذا الرقم الذى يتجاوز فى آخر العام مليار دولار مما تستطيعه دولة ككوبا تعيش على المعونة لان اقتصادها منهك ، هى على مفترق الطرق بين الزراعة والصناعة كما انها مشتل تجارب لكل انواع الاسواق والتقنينات الشيوعية ؟ الواقع أن كاسترو كان واجهة للسوفييت أو حصان طروادة ..

ولكنه يتجاوز هذا الدور حين يقدم لبعض الدول الافريقية مساعدات طبية ، وخبرات فنية ومنحا دراسية ولكى تدرك حجم تدخل أو تورط كاسترو فى افريقيا لابد أن تعرف أن قواته أنتشرت فى وقت من الاوقات فى ١٦ دولة افريقية ، حتى قيل انه صاحب نظرية قوات الانتشار السريع وليس الولايات المتحدة ..

كان لكاسترو فى انجولا ٣٠ الف جندى زادها الى ٣٥ الفا فى النصف الثانى من عام ١٩٨٥ . بالاضافة الى ستة آلاف مدنى ! ولكاسترو فى أثيوبيا ثمانية آلاف جندى ، وله فى الكونغو برازافيل ثلاثة آلاف وله فى موزمبيق ٧٠٠ جندى وضعفهم من المدنيين ، وله فى غينيا ٧٥٠ وفى سيراليون ٤٠٠ وفى أوغندا ٢٥٠ وفى زامبيا ٢٠٠ وفى نيجيريا ١٨٠ وفى تنزانيا ١٤٠ وفى بنين ٥٠ وله فى مدغشقر مائة خبير كوبى .. الخ .. وأذا كانت كوبا تقول أن الاعداد المحدودة فى بعض دول أفريقيا هم من الخبراء فالامر بعد يثير الدهشة ، لأن كوبا التى تعانى من مشاكل التنمية اولى بخبرائها عملا بقاعدة

أن زيتنا يحتاج اليه البيت يحرم على الجامع .

الواقع أن استمرار التواجد الكوبى فى افريقيا هو فى حقيقته مواجهة سوفييتية للتواجد الامريكى ان وجد أو قطع طريق على هذا التواجد ان فكرت الولايات المتحدة فى سد الفراغ أو البحث عن مناطق نفوذ ، ويتصور الاتحاد السوفييتى ـ والكتلة الشرقية معه ـ ان التواجد الكوبى لا يثير عند الدول الافريقية شبهة الاستغلال .. أو السطو الايديولوجى لان كوبا دولة ثورية مثلما الدول الافريقية ثورية .. ولانها فقيرة مثلهم .. وكل مافى الامر انه حلف فقراء يتساندون بكرامة لمواجهة الاقوياء والغيلان !

كاسترو وراء السوفييت !

وعلاقات كاسترو بآسيا تترسم فلسفة الاتحاد السوفييتى فى علاقاته مع هذه القارة .. فهى على أحسن حال مع الدول الشيوعية الاسيوية مثل فيتنام وكمبوتشيا ولاوس ومنغوليا وكوريا الديمقراطية ـ الشمالية ـ وقد أعلن كاسترو انه يرى أن تقتسم كوريا الجنوبية الالعاب الاوليمبية لعام ١٩٨٨ مع كوريا الشمالية ، قال هذا مع انه يتفق فيه مع وجهة نظر طرحتها سيول عاصمة كوريا الجنوبية .. ورد عليها الاتحاد الدولى للالعاب الاوليمبية بأن هذه الالعاب لا علاقة لها بالتقسيمات السياسية .. وانها تختار مدينة واحدة لاقامة الدورة الاوليمبية فيها ، والمدينة المختارة هى سيول !

وبين كوبا والهند علاقات طيبة وتسهم الهند في صناعات الدواء والنسج والاستخدام السلمي للطاقة .. وقد زار راجيف غاندى كوبا في عام ١٩٨٥ . ولكن المحللين السياسيين لا ينظرون الى هذه الزيارات على انها صدفة خالصة لكوبا وكاسترو .. بل يضعونها في مستوى تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفييتى ، أو تفريج أزمة ثقة معه ، أو حتى مجرد الغزو .

ولابد من أن نستنتج أن علاقة كوبا بالصين الشعبية ليست على مايرام ، نتيجة للازمات المتلاحقة بين السوفييت والصينيين ، وقد أبدى كاسترو قدرا عاليا من الحصافة السياسية لانه لم يندفع وراء أى بشائر بتحسن العلاقات بين العملاقين الشيوعيين فيمد جسوره الى الصين .. ذلك أنه ينتظر الضوء الاخضر من صديقه الاول .. الاتحاد السوفييتى ، ويجب أن يكون الضوء الاخضر واضحا وقويا ومستمرا قبل أن يمد كاسترو يده الى الصين الشعبية ..

ولعل موقف كاسترو من الحرب العراقية الايرانية يعكس التوازنات السرية الموجودة في داخل الكرملين ذاته .. ففى العراق وفد طبى كوبى .. يرضى العرب . وفى نهاية عام ١٩٨٥ زار وفد برلمانى ايرانى كوبا لتوثيق العلاقات الثنائية بين البلدين ! فهل يفعل الاتحاد السوفييتى غير هذا !

أكثر من هذا أن كوبا قامت بدور هام للدعوة للاتحاد السوفييتى فى مجموعة عدم الانحياز . وذلك عن طريق الهجوم المتواصل على سياسة الولايات المتحدة . وتصوير الاتحاد السوفييتى على أنه الاحضان الدافئة لكل حركات

التحرير ، ولكل المعانى الجميلة .. وعلى انه ـ اي الاتحاد السوفييتى ـ هو السند الاول لدول عدم الانحياز كاد كاسترو وهو يكثف هذه الدعاية ويروجها يحول مجموعة عدم الانحياز الى مجموعة انحياز للسوفييت ، وهو ماينتهى الى افراغ عدم الانحياز من مضمونه ، وبلغ كاسترو ذروة تحركه أثناء انعقاد مؤتمر عدم الانحياز فى هافانا عام ١٩٧٩ .. وكاد ينجح لولا أن تحركت بوعى وادراك مجموعة الحرس القديم من مؤسسى حركة عدم الانحياز ـ مصر ويوغسلافيا والهند ـ واثبتوا لعدم الانحياز أنه غير منحاز !

ولو تجولت بسرعة فى العلاقات الكوبية مع دول الكتلة الشرقية لوجدتها واحدة من هذه الاسرة ـ عوضا عن الاسرة اللاتينية التى طردتها من دارها ـ أو من جنتها ! بمؤامرة امريكية وقد أصبحت كوبا واحدة من مجموعة الكوميكون ـ وهو التجمع الاقتصادى لدول الكتلة الشرقية ، ولهذا فعلاقاتها بالمانيا الشرقية هى التالية للعلاقات السوفييتية فى الحجم والاهمية ، والمانيا تصدر لكوبا أجهزة صناعة السكر وتكنولوجيا الاتصالات والكيميائيات والاسمدة والالات والجرارات . وتقدم تشيكوسلوفاكيا لكوبا الطاقة والمحركات والتوربينات الخاصة بتوليد الكهرباء .. كما تقدم لها التكنولوجيا النووية .. والادوية ، وتدريب العمالة .. وقد كان اول من زار بولندا بعد حركة التضامن راؤول كاسترو .. ورد ياروزلسكى رئيس وزراء بولندا الزيارة ووقع اتفاقية للتعاون الاقتصادى والعلمى فى كوبا حتى عام ٢٠٠٠ وبولندا تقيم مصنعا للكرتون فى شرقى هافانا ..

والمجر تقدم خبرأتها الزراعية والصناعية لكوبا ، وفى كوبا مصنع لتجميع الاتوبيسات المجرية .. ويوغوسلافيا تقدم القروض . وبلغاريا ترسل الفلاحين بخبرات الزراعة ورومانيا مثلها .. والبانيا أقل القليل لان البانيا محسوبة على الصين الشعبية .

واذا كان مابين كوبا والاتحاد السوفييتى مصـــالح متبادلة لا عواطف ملتهبة فان من أصدقاء كاسترو القدامى الذى بعث بهم الى المنفى لما كانت الثورة كالنار تأكـــل بعضها .. من يرسلون له الخطابات ويقولون له انه خلص كوبا من الامريكيين ولكنه أوقعها فى حبائل السوفييت وان هذا خيانة صريحة وصارخة لتعاليم معلم الوطنيــة الكوبى الاول خوسيه مارتى الذى قال أن استبدالك سيدا بسيد ليس معناه انك أصبحت حراً .. وهنـــا يثور سؤال :

هل كوبا لازمة للسوفييت ؟!

ـ هل يستطيع كاسترو أن يستغنى عن الاتحـــاد السوفييتى ؟..

وقبل الاجابة عن هذا السؤال لابد من الاجابة عـــن سؤال يسبقه هو .. هل يستطيع كاسترو أن يعيـــد العلاقات مع الولايات المتحدة الى التطبيع ؟! الواقع أن كاسترو كى يستعيد ثقة الولايات المتحدة عليه أن ينسحب بقواته وخبرائه من كل أفريقيا ، لان كاسترو يهدد المصالح الامريكية فى افريقيا ، والواقع انه ليسترد اليانكى والعم

سام يحتاج الى درجة من ضبط النفس وضبط الحركة ليستطيع أن يلعب على الحبلين ــ وهو أمر ليس بالعسير لان تيتو يوغوسلافيا فعله من قبل ــ ولكنه في النهاية .. وفي المحصلة الختامية سوف يلوذ بالسوفييت لانه يضمنهم أكثر .. على الاقل بحكم عشرة ربع قرن من الزمان ، ولانه يعرف انه أن خسرهم فقد لا يأخذ من الولايات المتحدة ماتعطيه اياه موسكو من معونة ..

وهنا يثور سؤال آخر : هل الاتحاد السوفييتي يبذل هذه المعونة الهائلة لكوبا وهو راض سعيد ؟ أو عن سعة وسخاء ؟ ام انه .. يضيق بها ذرعا . ويود لو تنكمش .. ويتمنى أن تتلاشى خاصة ان الاتحاد السوفييتي يعانى من أزمات طاحنة ومتعاقبة ؟! ان الواقع يقول ان الاتحاد السوفييتي ان لم يقدم المعونة لكوبا ــ بحجمها « الشباعي » ــ فانه يفقد مصداقيته في الوقوف بجانب الانظمة الشيوعية على النسق السوفييتي . ان تحالف كوبا مع السوفييت جعل منها المجتمع الوحيد في العالم الذي عاش مناخ الحرب مع انه ليس طرفا في اى حرب وجند مئات الالوف للقتال ، مع أنه ليس صاحب قضية تدعوه للقتال ، وقد مر بأزمات طاحنة .. وهي معجزة ان نظام كاسترو استمر ، ولكن لاشك ان الاتحاد السوفييتي هو الخزانة المفتوحة ، وترسانة السلاح الغزير التي جعلت جيش كوبا أقوى جيوش أمريكا اللاتينية بعد البرازيل والارجنتين ــ مع ملاحظة أن عدد سكان كوبا لا يتجاوز سبع سكان الاولى وربع سكان الثانية ..

ويثور في شأن العلاقات الكوبية السوفييتية سؤال ثالث هو :

ـ هل كوبا لازمة للسوفييت في حرب محتملة ضد الولايات المتحدة ؟

ويجيب عن هذا السؤال كول بليزين في بحث عن العلاقات السوفييتية الكوبية الامريكية فيقول ان التواجد السوفييتي في كوبا من أكثر الاشياء غير المفهومة عند المحللين السياسيين في الولايات المتحدة ، بل المدهش اكثر من هذا أن الاتحاد السوفييتي يضع كوبا في موقع متقدم بالنسبة لاولوياته واهدافه .. واليقين ان كوبا ليست لازمة للسوفييت في حربهم مع الولايات المتحدة .. فعند السوفييت الغواصات والرءوس النووية والصواريخ العابرة للقارات ووضع السوفييت للصواريخ في كوبا لم يكن الا مظاهرة استعراض عضلات . وقد رد عليها كنيدي بالمثل كما انها كانت محاولة لاضفاء اهمية استراتيجية على كوبا ، وقد رفع السوفييت الصواريخ .. ولم تعد هناك اية ازمة تذكر منذ ذلك الحين . وكوبا ليست محطة للغواصات السوفييتية لأن هذه الغواصات تتحرك في الاطلنطي من الموانيء السوفييتية مباشرة قد تكون كوبا محطة تموين .. وهي لا تتجاوز هذا الدور ..

وفي عام ١٩٧٠ اعترض الرئيس الامريكي نيكسون على بناء قاعدة للصواريخ في سنيفيجوس لان هذا خرق صريح لاتفاق كنيدي ـ خروشوف عام ١٩٦٢ ، وهو الاتفاق الذي ينص على عدم وضع أسلحة هجومية في كوبا .. ومنذ عام ١٩٧٤ لم تزر كوبا غواصة سوفييتية وقد جردت الجزيرة من كل مايمكن أن يشكل خطرا على

أمن الولايات المتحدة لان القواعد الامريكية فى فلوريدا قادرة على رصد هذا الخطر واحباطه على الفور . وكل مايمكن أن يمثله أى وجود عسكرى سوفييتى - ولو رمزيا - هو اثر نفسي والهدف منه أن يتقمص الاتحاد السوفييتى دور المدافع عن كوبا .. وان كوبا تحت مظلته .. ولكن يشك كثيرا فى أن يرسل الاتحاد السوفييتى قواته وصواريخه لتهاجم الولايات المتحدة من أجل كوبا - حتى ولو كانت العلاقة بينه وبين كوبا هى الحجم الذى عرفنا ، والاعماق التى حفرنا !

أن الاتحاد السوفييتى لا يرفع شعار « شكل للبيع » فى البحر الكاريبى لانه يعرف أنه قد يدفع ثمنا باهظا لهذه السياسة .. ولاشك انه يود لو يتخفف من الاعباء التى تلقيها عليه كوبا ، ومن الاشياء العابرة مايدل على هذا .. ففى ١٧ فبراير عام ١٩٧٧ نشرت صحيفة الازفستيا السوفييتية تعليقا على توقيع الاتفاق بين كارتر وكاسترو بشأن الصيد فى البحر الكاريبى قالت فيه تحت عنوان سيادة العقل : لقد اقترب المسئولون فى واشنطن من حقيقة هامة هى ان تطبيع العلاقات مع كوبا خطوة طيبة لصالح البلدين .

لا سفينة فضاء ولا عدل !

على أن الذى يتصور أن العلاقة بين السوفييت وكوبا شهر عسل دائم هو واهم .. فبين الازواج تحدث الخلافات ، وقد ينشب العاشق أظافره فى رقبة معشوقته . وعندما ذهب راؤول كاسترو للعزاء فى

الرئيس شيرنينكو أراد أن يلتقى بجورباتشيف فلطعه هذا الاخير ٢٤ يوما قبل أن يقابله . وهى قصة معروفة عندما ذهب وزير الذرة والفضاء الكوبى الى موسكو وقدم نفسه لبريجنيف .. فنظر اليه الرئيس السوفييتى بدهشة وسأله :

ــ لماذا وزير ذرة وفضاء .. وانتم من غير ذرة ولا سفينة فضاء ؟

فقال الوزير الكوبى بأدب قاتل :

ــ سيدى .. أنتم عندكم وزير عدل !

الخروج الى فلوريدا ..

لطمــة لكاستــرو !!

مزق كاسترو اتفاقية الدفاع المشترك بين الولايات المتحدة وكوبا وقذف بها في الهواء امام ٣٠٠ الف كوبى في ميدان الثورة ، كان هذا بعد عودته من واشنطن في ربيع عام ١٩٥٩ . عندما تجاهله ايزنهاور وفضل عليه كرات الجولف والمباراة التي كان يلعبها . واعلن كاسترو قطع العلاقات الدبلوماسية على أن يبدأ العمل بذلك على الفور فتنقص السفارة الامريكية عدد أعضاء بعثتها من ٨٧ الى احد عشر عضواً .. وتفتحت على كاسترو أبواب الجحيم الامريكي خاصة وهو مصادر أملاك احد عشر الف امريكي كانوا يقيمون في كوبا وبعضهم كانت له ضياع يهبط في قلبها بطائرته الخاصة قادما من امريكا ! امم كل البنوك الامريكية ، وقد كان يمكن للأزمة كلها ان تحتوى لو لم يعلن كاسترو أن كوبا أصبحت ماركسية لينينية ، ولو لم يفتح ابوابه للجنود والسلاح والصــــواريخ السوفييتية ، أنه بهذا - من منظور امريكي - يخرق مبدأ مونرو .. ويستورد الشر ليزوعه في قلب الكاريبي ويجعل خط المواجهة مع الاتحاد السوفييتي على بعد ١٥٠ كيلو مترا مع انه كان دائما على بعــــد بضعة الوف مــــن الكيلومترات .. وراء المحيط الاطلنطي واوربا .. أو وراء القطب الشمالي وسيبيريا .. فاذا لخصت لك ماقلناه بتوسع من قبل فقد فكر الامريكيون في التخلص منــه

بالغزو العسكرى حين جردوا عليه حملة من الكوبيين المناوئين له والفارين من الثورة ـ فيما عرف بعملية خليج الخنازير ـ وقد اجهضها واحبطها وحقق فيها انتصارا زاد من ضراوتها فى الهجوم على الولايات المتحدة بل واغرآه الانتصار ، والخوف من الانتقام الامريكى فى نفس الوقت بأن يفتح أبوابه للصواريخ السوفييتية .. ونحن نعرف كيف انتهت العملية بانسحاب الصواريخ وغضب كاسترو .. ومن ذلك الحين أصبح التخلص من كاسترو سياسة امريكية معلنة . بل أن عملية خليج الخنازير كان من اهدافها قتله ، وقد اعترف وليام تيرنر من مكتب التحقيق الفيدرالى بانه جرت خمس عشرة محاولة لقتل كاسترو من عام ١٩٥٩ الى عام ١٩٦١ .. وقد جاءت تفاصيل عن بعض هذه المؤامرات فى كتاب المشروع الكوبى الذى كتبه تيرنر مع دارك هينكل ، واعترف الكاتبان بان اكثر هذه المؤامرات انطلق من قاعدة جوانتانامو البحرية الامريكية فى كوبا .

وفى عام ١٩٧٥ قال النائب جورج ماكجفرن أمام لجنة العلاقات الخارجية الامريكية بعد أن التقى بكاسترو فى هافانا :

ـ يجب أن نسلم بانه جرت مائة محاولة لقتل كاسترو مع نائبه كارلوس دورديجز !

وقد كشفت أحدى اللجان المتخصصة فى الكونجرس ـ فى معرض تحليلها لنشاطات المخابرات المركزية الامريكية ـ عن ثمانى محاولات لاغتيال كاسترو . واذا كانت كل هذه المؤامرات قد خابت فانها تركت على كاسترو بصمة حقد هائل على الامريكيين ، والزمته مسالك

معينة في حياته ، فهو يرتدى دائما الصديرى الواقى من الرصاص . وهو لايمكن أن يقف في مكان واحد مع شقيقه راؤول كاسترو .. لان راؤول هو الرجل الثانى وقد ينفرط العقد لو قتل الاثنان معا . وكاسترو رئيس جمهورية ولكنه بلا عنوان . ويقولون أنه يقيم فى خمسين شقة أو مائة . وعلى مشارف هافانا مجموعة فيللات متشابهة تتوسطها حمامات السباحة . وتكتنفها الاشجار وفيها كل البذخ الذى يمكن أن يتصوره العقل . . وكاسترو يقيم فى واحدة من هذه الفيللات احيانا .. ولكن العفاريت الزرق لا تستطيع أن تعرف فى أى منها يقيم ..

فى تعاملاته مع ضيوفه من رؤساء الدول .. لا يعلن عن استقباله لهم الا قبل وصولهم بساعات ، ولذا تتسابق سيارات السلك الدبلوماسى الى المطار ليقف الدبلوماسيون فى صف الاستقبال . وهم هناك يتلقون الدعوة للعشاء الرسمى الذى يقيمه كاسترو لضيوفه ، وموعد الحفلة ومكانها عادة سر حربى .. أو له هذه الخطورة !

والامريكيون يضحكون لانهم حرموه لذة العيش المطمئن .. وهم يعتقدون أن هذه عقوبة كافية .. مع انها عقوبة تجعل اعصابه مشدودة ، والزعيم صاحب القرار يتخبط اذا اتخذ قراراته وهو هكذا ..

جوانتانامو .. اغنية
ام ماساة قادمة !

حاصرت الولايات المتحدة كوبا وقطعت بينها وبين دول امريكا اللاتينية فيما خلا المكسيك ، وكان كاسترو يعتبر

وجود قاعدة جوانتانامو الامريكية فى جنوب شرقى كوبا عملية مهينة .. ولكنه لم يكن يملك لها شيئا .. لان كوبا أجرتها للولايات المتحدة عام ١٩٠٣ .. وفى العقد شرط الأسد وهو أنه ليس من حق كوبا أن تنهى عقد الايجار الا اذا ارادت الولايات المتحدة .. والاقدام على مخالفة الاتفاقية يتطلب مغامرة عسكرية غير مأمونة العاقبة ، ولا سبيل لانهاء العقد وتصفية الوجود الامريكى الا بالتراضى . فهل بين كاسترو وأى رئيس أمريكى هذا التراضى ؟ ومنذ انقطعت العلاقات بين البلدين حرصت الولايات المتحدة الامريكية على أن ترسل الى كاسترو شيكا بمبلغ ثلاثة آلاف دولار هى قيمة ايجار القاعدة بأسعار عام ١٩٠٣ وبهدوء شديد كان كاسترو يرد الشيك للبنك ، فيحفظه البنك تحت حساب الحكومة الكوبية !

وجوانتانامو ليست قاعدة حربية امريكية فقط .. انها ايضا اغنية اسبانية تتغنى بالموقع وهى مما تعزفه الملاهى الليلية فى كل أنحاء العالم ولا أحد يعرف ان كانت الاغنية تسعد الكوبيين أم لا .. ولكنى ماذهبت الى مكان فى هافانا يعزف الموسيقى الا وكانت جوانتانامو مما يقدم ..

ومن الكوبيين من يتوقع أن تكون جوانتانامو بداية الى مأساة قادمة . وقد حدث فى يونية عام ١٩٦٦ أن قتل جندى امريكى من هذه القاعدة .. وعلى الفور اعلن البنتاجون ان كوبا تهدد أمن الولايات المتحدة .. فرد كاسترو بعصبيته قائلا :

— ان حكام وأشنطن عصابة من اللصوص وقطاء

الطرق . بل والمجرمين المحترفين .. ان شـــعب كوبا مستعد لمواجهة أى عدوان امريكى وسحقه فورا ..

وبدأ كاسترو يفتح ثغرات على الولايات المتحدة فى امريكا اللاتينية . وقد ذهب الرئيس نيكسون فى جولة بين بعض هذه الدول فاستقبلوه بمظاهرات العداء وقطع الزيارة وعاد .. وحدث نفس الشيء لروبرت كيندى شقيق الرئيس جون كنيدى .. وكانت الهتافات هى يسقط اليانكى . واليانكى تعبير من الحرب العالمية الثانية عن أبناء نيويورك خاصة ، والامريكيين عامة وقد سئل كاسترو عن هذه المظاهرات فقال :

ــ عندما تحترق ذقن جارك .. فعليك أن تقص ذقنك فورا !

ومعنى هذا أنه بدأ يؤثر على دول أمريكا اللاتينية !

ولكن جيرالد فورد ومن بعده جيمى كارتر كانا على استعداد لمهادنة كاسترو ، بل وجرت مباحثات حقيقية لتخفيف التوتر بين البلدين غير انها توقفت عندما تدخلت كوبا عسكريا فى انجولا ايام فورد ، أما ايام كارتر فقـد توقفت المباحثات بسبب تدخل كاسترو فى الحــرب الاثيوبية الصومالية .. ورغم هذا تم توقيع اتفاقية الصيد بين الطرفين عام ١٩٧٧ ، وتمت الموافقة فى هــذه المباحثات على اقامة قسم لرعاية المصالح بين البلدين .. وبمقتضى هذا القرار فتح كاسترو الابواب للكوبيين الذين هاجروا منذ الثورة ، أو الذين تسللوا من كوبا بعد ذلك بالعودة لزيارة الاهل .. وقد كانوا فرصة لكاسترو لزيادة الدخل .. لانه فرض على كل زائر منهم أن يدفع ٥٠٠ دولار ثمنا لتأشيرة الدخول ..

من يريد الهجرة فليرحل !

ويبدو أن كاسترو دفع ثمن هذا الذى قبضـــه ! فالكوبيون المقيمون فى داخل جزيرتهم التى تطبق العيشة الشيوعية الجافة ، انبهروا بما رأوا من ملابس أهلهم القادمين من الولايات المتحدة ، وانبهروا أكثر بما رواه الاخيرون عن مباهج الحياة الامريكية ، وكانت قنوات التليفزيون الامريكى تتسلل الى الشاشات الكوبية وتقتحم البيوت على الكوبيين الذين وان كانوا شبعوا من الخبز بعدالة التوزيع فانهم لم يبتعدوا كثيرا عن حد الكفاف ، ثم .. أين البيوت الامريكية وناطحات السحاب مـن المنازل العتيقة التى يعيش فيها الكوبيون . والتي لايجدون بديلا لها الا فى الاحلام !

اذكت زيارة الكوبيين القادمين غضـبة الكوبيـين القاعدين وفتحت اعينهم على أن للحياة وجها آخـر تعمدوا نسيانه منذ قامت ثورتهم ولكنهم أصبحوا يملون تعمد النسيان ، واشتعلت فى صـدورهم التطلعات ، وبدأت العملية بسيطة ثم اتسع نطاقها . لجا عدد مـن هؤلاء الى سفارة بيرو فى هافانا .. وتصدى الحـرس من الكوبيين المتناثرين حول السفارات لمواطنيهم ليمنعوهم من الدخول ، فما كان من الاخيرين الا أن قتلوا الحرس وسرى الخبر فى هافانا فوقفت المدينة على اطـراف أصابعها لترى مايسفر عنه الموقف .. واذا بعدد اللاجئين لسفارة بيرو يبلغ الالاف واذا بهم يندفعون الى سفارة أخرى هى سفارة فنزويلا .. وخرج كاسترو عن صمته فقال بصوته الهادر كالرعد :

ـ من يريد أن يترك أرض كوبا فليرحل !

ولم يندفع كاسترو الى اى عمل يخرق القانون الدولى الذى يعتبر السفارات أراضى طافية بعيدا عن مواطنها . وبلغ عدد من تجمعوا فى السفارتين أكثر من عشرة آلاف نسمة ، وفى هذه الاثناء أصدر كاسترو تصريحا لاهلهم فى الولايات المتحدة بأن يحضروا القوارب واللنشات التى تقلهم بعيدا ..

وأصبح الحال فى كوبا كأنه يوم الحشر .. وبدأ أناس كثيرون بالالوف ، بعشرات الالوف يتحركون من المدن والقرى .. من المصانع والحقول وهم يحملون امتعتهم ليرحلوا ـ أصابهم جنون ـ سعار مباهج الحياة الامريكية على كل لسان برودواى ـ لأس فيجاس ـ هوليوود ـ ألجسر الذهبى فى سان فرانسيسكو ... بدائع واشنطن المعمارية وتماثيلها ، مانهاتن ، ناطحات السحاب .. واقبلت اللنشات والقوارب البخارية والسفن ذات الموتورات الصاخبة ، وكان المغادرون يتعانقون ويتبادلون العناوين ، والدموع .. من المترقبين الباقين من خشى عاقبة الذهاب الى الميناء لهذا قعدوا فى بيوتهم .. انهم يسمعون عن كاسترو واستسلامه لما يجرى ، ولكنهم يعرفون انه يزفر غضبا ويتميز غيظا . ان الاعداد التى استقلت السفن من ميناء ماريل ـ اقرب الموانىء الى فلوريدا .. لانه على مسافة ١٥٠ كيلو مترا ـ تجاوزت ١٤٠ الفا ، واليقين ان ١٢٥ الفا استقلوا القوارب وعبروا ، ومن لم يجد القى بنفسه فوق أطار من الكاوتشوك وفر .. لعله يجد نجدة فى الطريق ، او لا الى هذا الحد بلغ يأسهم من الحياة فى كوبا فتدفقوا الى الثغرة المفتوحة ، ليهربوا ..

كانت العملية فى مجموعها اكبر لطمة لنظام كاسترو

انه أغلق الحدود ولم يعد العالم يسمع عن كوبا الا مايريد هو اعلانه خلال صحفه واذاعاته ووكالات انبائه . وكل ماسمعه العالم براق ومشرق ، بل سمع ان لكوبا قوات تمرح فى الغابات الافريقية ، وتقاتل مع البوليزاريو او الاثيوبيين .. وتبني سورا يحمي ليبيا من الغزو المصرى فجاة سقط القناع وبدا ان هذه الالوف المؤلفة تريد الفرار .. بجلودها ..

أصبح الهمس وراء الجدران فى كوبا أعلى من صيحات الفرح في الموانىء .. واعلى من بكاء الذين تركتهم القوارب ومضت تشق العباب الى الشواطىء الامريكية ، وكأنها شواطىء الاحلام السعيدة ، وازدحمت شاشات التليفزيون الامريكي بالحدث .. تأخذ منه الدليل على أن كاسترو يتساقط ، وأن نظامه لم يسعد انسانه ، وأن الشيوعية قفص الحرمان الذى يريد كل واحد داخله أن يفر منه بعيدا ، وعقدت الندوات والحوارات .. فقد كانت هذه فرصة ذهبية لتعميق كراهية الشيوعية عند شعب لا يحتاج الى المزيد لكى يكرهها ..

وبدأت الافواج الاولى تصل الى فلوريدا ، وفجأة تعالت أصوات من داخل الولايات المتحدة تقول :

ـ خذوا حذركم .. فان كاسترو لن يترك هذه العملية تمر دون أن يثرى منها . أنه فتح السجون ودفع الى الفرار كل من هم عبء عليه فيها من الخطرين أنه دس بين هذه الالوف مرضى مستشفيات الامراض العقلية .. ثم .. ثم أنه لايعقل أن يفوته أن يدس جواسيسه بين القوافل العابرة للكاريبى الى أرض أعدائه

اما من تركتهم القوارب على الشواطىء عند ماريل

وغيرها فقد ساهم الكوبيون من الميليشيات وجيش الدفاع وحرس الثورة ، العذاب ، انهم اعتدوا عليهم واهانوهم وقتلوا سبعة عشر منهم ، وسمع كاسترو وتدخل لحمايتهم الى الابد .. فقد ظلوا فى كوبا كطبقة منبوذة .. فعملاء للامريكيين .. وان لم تجتمع لهم الاسباب وان لم يواتهم الحظ للفرار .. عاش هؤلاء كمشبوهين أو مواطنين من الدرجة الثانية يحلق فوق رءوسهم عار .. انهم ممن حاولوا الفرار ..

والواقع ان كاسترو كان يريد أن يتخلص ممن لهم اقارب فى الولايات المتحدة فهؤلاء هم الطبقة التى تكونت عندها التطلعات والاطماع : وهى التى تنشر التذمر وتبث الغضب فى كوبا ، فى تقديره ان التخلص منهم مهما كانت آثاره الجانبية فانه أخف عليه من بقائهم .. لانهم سيقوضون نظامه !

من امريكا ..
هبت ريح مواتية !

وقد ثبت من فحص الامريكيين للمهاجرين الكوبيين ان بينهم ٢٧٠٠ بين معتوه ومشبوه ومكروه ، وبدأت الولايات المتحدة تطالب كوبا باعادتهم . وبدأت المفاوضات ولكنها تعثرت ، وجاء الرئيس رونالد ريجان الى البيت الابيض فأذاق كوبا بعضا من كراهيته للسوفييت ، وبدا متشددا منذ اليوم الأول أو منذ التصريح الاول ضد كاسترو ، وعندما زار والتزر وهو احد السفراء الامريكيين المتجولين كوبا أعرب الكوبيون عن رغبتهم فى تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة خاصة أن هذه

الاخيرة كانت تذيع اتهاماتها لكوبا بمساعدة ثوار السلفادور .. غير أن الكسندر هيج - وزير خارجية ريجان - قال بصلب ان على كوبا أن تقاطع الدول الاشتراكية فقطع هذا التصريح الاتصالات الجارية ..

وحدث غزو جرينادا عام ١٩٨٣ .. الغزو أمريكى صارخ وهو أول تدخل بهذا الحجم لمواجهة الشيوعية فى امريكا اللاتينية ، وعلى الفور تحركت كوبا الى ماتعتقد انه مسئولياتها ، فأرسل كاسترو العقيد تروكولو وهو خبير عسكرى ومنظر ايديولوجى الى جرينادا ليعرقل اندفاع القوات الامريكية .. ولكن تروكو لم يكن على مستوى المهمة فأخفق .. بل ولاذ بالفرار لاجئا الى السفارة السوفييتية .. فحاكمه كاسترو غيابيا واختزل رتبته العسكرية !

وفى عام ١٩٨٤ .. وهو عام الانتخابات الامريكية .. شهدت العلاقات الامريكية الكوبية احداثا غريبة - وان كان شيئا لا يستغرب فى عام الانتخابات الامريكية - فقد زار جيسى جاكسون كوبا .. وهو بهذا يتصيد اصوات الزنوج لان ٤٥٪ من سكان كوبا زنوج ، وايما اقتراب من أمريكا يسعدهم ، ويسعد بالتالى بنى جلدتهم فى الولايات المتحدة .. كما كان جيسى جاكسون يسعى لمجد خاص وهو المرشح للانتخابات وقد حققه بالافراج من عدد من المسجونين الامريكيين فى كوبا وتم التفاوض حول توقيع اتفاقية للهجرة يتم بمقتضاها اعادة المهاجرين الكوبيين - الـ ٢٧٠٠ - الى كوبا بعد أن احتجزتهم الولايات المتحدة فى سجونها .

وبدت فى الافق ريح مواتية خاصة أن جيسى جاكسون

وای مرشح امریکی لا یمکن أن یخطو خطوة بعیدا عن الارض الامریکیة آلا بالاتفاق مع الخارجیة الامریکیة .
ثم هبت نسمة أخری مواتیة ، فقد زار وفد برئاسة عضو کونجرس امریکی کوبا ، وکانت الزیارة محاطة بالسریة ، فی بدایة عام ١٩٨٥ والتقی الوفد بکاسترو وبحث معه سبل تطبیع العلاقات التجاریة ، ولكن کاسترو أفسد هذه الزیارة حین بدا حملته التی طالب فیها بوقف سداد الدیون ، طالب فیها کل دول العالم المدينة بالا تدفع ما علیها ونادی أول ما نادی دول أمریکا اللاتینیة وهاجم أول ماهاجم النظام الراسمالی واتهمه بانه المسئول عن الأزمة الاقتصادیة العالمیة ..
الولایات المتحدة اعتبرت موقف کاسترو تهدیدا لمصالحها فی المنطقة ..

وقرر ریجان أن ینتقم ، فراعی البقر السینمائی لا یترك ثأرا ، وبینما رفضت لجنة فی مجلس الشیوخ أن توجه قناة تلیفزیونیة الی کوبا حتی لایتطور شعبها بالفکر الامریکی علی أساس أنهم یجب أن یتحملوا عقوبة البقاء تحت شعارات کاسترو ، فان ریجان وافق علی انشاء محطة اذاعة مارتی — وهو اسم بطل کوبا وابو الوطنیة فیها — وجاء البث من شواطیء فلوریدا قویا واضحا .. مقتحما للبیوت والمقاهی واعتبر کاسترو هذه الاذاعة تدخلا فی الشئون الداخلیة لکوبا ، ولهذا کان رد فعله عنیفا — کالمعتاد — فعلقت اتفاقیة الهجرة واعلن أن کوبا تحتفظ بحقها فی الرد بطریقة ملائمة ، واتهمت الولایات المتحدة کوبا بانها من الدول المساندة للارهاب

الدولى ، وهى تهمة كان المجتمع الدولى يعد العقوبات لمرتكبيها ، وحظرت الولايات المتحدة بالتالى اعطاء تأشيرات للمسئولين الكوبيين آلا فى أطار مهمات قسم رعاية المصالح ، أو وفد كوبا لدى الامم المتحدة وحددت دائرة تحرك الكوبيين الرسميين فى الولايات المتحدة وحظرت سفر الوفود الرياضية والثقافية الكوبية لها .. بل واخترقت طائرة استطلاع امريكية المجال الجوى الكوبى فى أغسطس وسبتمبر من عام ١٩٨٥ لمتابعة الامدادات العسكرية السوفييتية لنيكاراجوا .. عن طريق كوبا .. واحتجت كوبا لدى قسم رعاية المصالح الامريكية فى هافانا ، وأحاطت المظاهرات بالمبنى الامريكى لان الذى حدث فيه عدوان على السيادة الكوبية ..

كل هذا أوقف ماكان كاسترو قد بدأه فى فبراير عام ١٩٨٥ عندما قدم عرضا تصالحيا مع ريجان .. رغبة منه فى أن يخفف حدة التوتر بين البلدين ، ليفتح الاسواق الامريكية أمام الصادرات الكوبية — وهذا مربط الفرس وبيت القصيد — بل ليفتح كوبا للقانون الجديد الذى يعطى المستثمرين حق العمل فى كوبا ، وقد قال كاسترو فى عرضه أنه على استعداد للتوصل لحلول سياسية لمشاكل امريكا الوسطى وافريقيا .. ولم يخف كاسترو انه كان يحسد الصين الشعبية على أنها أقامت الجسور والعلاقات بينها وبين الولايات المتحدة .. فلماذا لا يسير على الدرب ؟ بل أن فى الافق فى ذلك الحين انباء عن لقاءات بين القادة السوفييت والقادة الامريكيين فلماذا لايدلو بدلوه .. لماذا لا ينهج المنهج ذاته ، أن كاسترو كان يعرف أن بلاده لم تحقق بالشيوعية

المنى ، وقد يصدر كل الكلام المعسول عن نظامه وسعادة الكوبيين به ، ولكنه يعرف الحقيقة ، وكل شعبه يعرف الحقيقة .. الحقيقة أن الزراعة لم تحقق الاحلام ، والصناعة تحتاج الى عراقة وتقاليد ، تحت وطأة هذا كله كان كاسترو يريد أن يتحدث فى اختطاف الطائرات الكوبية الى الولايات المتحدة وهى عملية سهلة يقوم بها المغامرون الذين يريدون الفرار من كوبا .. وهم بعد ثلث الساعة يمكن أن يتنفسوا الصعداء فى مطار ميامى ! وكان يريد أن يتحدث عن الغاء اذاعة مارتى لانها تزعجه حقيقة .. وكان يريد أن يفاوض فى اغاثة السفن الكوبية اذا جنحت الى المياه الاقليمية الامريكية بسبب سوء الاحوال الجوية .. وكان يريد أن يحسم المنازعات حول مناطق الصيد ..

ولكن رونالد ريجان رفض عروض كاسترو لانه لايريد ان يقر له باى دور فى شئون امريكا الوسطى ..

فى هذا الوقت كان من أصحاب الفكر المضاد لريجان فى قلب الولايات المتحدة من يقولون :

ــ هذا الرجل يتعنت .. ان عليه أن يسمع كاسترو .. ويتفاوض مع كاسترو ..

والواقع أن رونالد ريجان كان يمكن أن يتحدث الى كاسترو ، لولا ماتقدمه له المخابرات الامريكية ، وهى شديدة العداء لكاسترو على الاقل لانها فشلت فى محاولات قتله العديدة ، لولا ما تقدمه من مساعدة كوبا للساندينستا فى امريكا الوسطى والسلفادور .. ولولا اقناعها له بأنه حريص على أن يشق للشيوعية طريقا الى الفناء الخلفى لامريكا .. وحريص على أن يستثمر معاناة دول امريكا

اللاتينية فيحرضها على عدم دفع ديونها . وقد نجح فعلا في استصدار قرار برلمان منظمة أمريكا اللاتينية بأن الديون غير قابلة للدفع في ظل الظروف الحالية .. كل هذه الاهوال تجسمها المخابرات الامريكية وتجسدها ، وتسوق عليها براهينها وتقطع كل شعرة يمكن أن تمتد بين رونالد ريجان وكاسترو .

ومن أهم القضايا التي كانت المخابرات الامريكية تثيرها وتوغر بها صدر الجالس على عرش البيت الابيض ضد المختفي في خمسين شقة وفيللا في هافانا قضية بورتوريكو .. ذلك لان بورتوريكو لها أهمية خاصة عند الولايات المتحدة الامريكية بصفتها موقعها المتقدم في بحر الكاريبي .. المتلاطم الامواج بالخطر والهول ..

وتوقعات الغد !

فما هي حكاية الولايات المتحدة وبورتوريكو وكوبا ؟

عن ميزان العدل ووعد الحرية ومأساة الشعر والنثر !!

فكيف حال الناس فى كوبا ؟ وكيف تلقاهم اذا بلغت هافانا ؟ وهل تصدر حكمك عليهم فتقول انهم شعب ضاحك راقص لمجرد أنك سهرت سهرة صاخبة فى ملهى البروبيكانا الذى يشبه ليدو باريس . وافتتنت بالراقصات الابنوسيات ، وأنبهرت بالازياء المختزلة البراقة ؟ .. أم تصدره وانت ضيف على حكومته تتمتع بأسباب الراحة فى أحد الفنادق الكبرى ، هافانا ليبر الذى بناه الامريكيون وسموه هافانا هيلتون .. فلما حرره كاسترو وأعطاه اسمه الجديد ، أو هافانا ريفيير ذو القاعات الضخمة ، والموائد الشهية ، أو حتى اقمت فى فيلا من فيلات الضيافة التى يقدم فيها ما لذ وطاب من الطعام والشراب .

الواقع أن الحكم على حال شعب يدعوك الى جولة فى العمق باذن واسعة تسمع ، وبعين مفتوحة ترى ، وبضمير حى يصدر على المشاهد واحوال الناس حكما موضوعيا .. قد يصبح فى النهاية موضع نظر لان كل حكم قابل للنقض . غير أن من البديهيات ما لا سبيل الى المغالطة فيه أو الطعن عليه .. وسلسلة البديهيات فى كوبا تقطع أن كوبا تمساح يبكى بدموع حقيقية ، فان شعب كوبا معزول مرتين : مرة لان الولايات المتحدة الامريكية ارادت ذلك ، ومرة أخرى لأن طبيعة النظام تحتم ذلك .. فالنظام فى كوبا من اشد النظم صرامة فى

الرقابة على الناس . قد عرفت ان من طلائع الثورة من ينتمون لكل أسرة ، وهؤلاء يبلغون لجنة الحى بشكل مايدور فى أسرهم ، وفى العمل لا أمان .. فانت تقول كلمة وقد تحاكم عليها قبل أن تغيب الشمس ، ويسرى هذا على الغريب .. فأعضاء السلك الدبلوماسى مثلا يحتاجون لاطقم من العاملين معهم . وهؤلاء لابد أن تقدمهم الدولة ، فهناك لا سبيل للاعلان عن وظائف خالية أو مطلوب فلان أو علان — ينتهى يوم العامل فى مكتب الدبلوماسى او بيته فى الساعة الخامسة . فلا يعود الى اسرته .. بل يعود الى حاكمه الحقيقى « لجنة الحى » ليقدم تقريرا عما حدث فى ذلك اليوم .. فكل بيت مخترق ، وكل ساحة مرهونة . وانت لا تستطيع ان تتحدث الى اى كوبى ، فهو يعرف انه قد يكون مراقبا ، وان حديثك اليه قد يحوله الى « عميل » يتحدث الى الاجانب ، واذا كان الكوبى قد تخطى الاربعين وذاق طعم الحديث القديم ايام كان يستطيعه فانه سوف يمضى امامك تاركا مسافة .. ويرد عليك ، أو يبطىء الخطى ليكون خلفك ويجيب على ما تسأل ! ويتساوى فى هذا من يدردشون لمجرد الدردشة .. وكأن الدردشة التقاط أنفاس ، أو من يطلبون اليك الدولار تستبدله بالبيزو .. وظاهر الامر بسبب قسوة قانون النقد أن كوبا ليست فيها سوق سوداء .. لان كاسترو وجد البيزو ينهار الى عشر قيمة الدولار فى السوق السوداء اخذ تجار السوداء اخذ غرائب الابل — كما قال الحجاج بن يوسف الثقفى — ولكن السوق قائمة وان كانت دفينة ، وسعر الدولار يساوى خمسة اضعافه فيها ، مع أن الدولار اقل من البيزو بمقدار الخمس

فى الحسبة الرسمية ، وهذه الحسبة يصدر بها أمر حكومى يتحدد فيه سعر البيزو على سعر ثلاث عملات هى المارك الالمانى والفرنك السويسرى والين اليابانى !

واللغة الانجليزية غائبة عن كوبا بالنسبة للجيل الجديد ، يتعلمها فقط من يتعاملون مع السائحين ، وفى حدود حوار البيع والشراء ، وهذه عزلة لسانية لان البحر الكاريبى تتحدث الانجليزية فى أكثر جزره ..

واذا كانت لجنة الحى أول الرقابة ، فتصعيد التقارير عنها الى المستويات العليا يمضى فى قنوات سريعة ، ومن الاخبار مالابد أن يعرفه كاسترو فى نفس اليوم . لان كاسترو هو كل شىء فى كوبا فهو رئيس مجلس الدولة ورئيس مجلس الوزراء وقائد عام القوات المسلحة ، وهو السكرتير الاول للحزب الشيوعى ، فان سقط اختصاص مامن الاختصاصات الكبرى فان يسقط فى حجر راؤول كاسترو .. شقيقه ، لانه نائبه فى كل شىء ، وكاسترو بهذه الصورة يمسك مقاليد السلطة التنفيذية ، ولكنه فى الواقع يمسك ايضا مقاليد السلطة التشريعية — ككل نظام شمولى — وان كان لهذه السلطة رموز لا تقف على قدم أو ساق ، هى بالاحرى لافتات للتصدير ! فحتى ديسمبر عام ١٩٧٦ لم يكن لكوبا برلمان ، وكان مجلس الوزراء يتولى السلطة التشريعية ، وقد تم التصديق على الدستور الجديد فى المؤتمر الاول للحزب الشيوعى الذى تضمن انشاء المجلس الوطنى لقوى الشعب ليقوم بالمهمة التشريعية ، وعدد أعضاء البرلمان ٤٦٩ عضوا يتم انتخابهم كل خمس سنوات ، ويعقد البرلمان دورتين عاديتين كل سنة الاولى فى شهر يوليو ، والأخرى فى

الشهر ديسمبر ، وسلطات البرلمان الحقيقية محدودة جداً ، ولا تتعدى التصديق على القوانين التي صدرت بالفعل ، أو التصديق على الاتفاقيات التي وقعت من قبل ، او مناقشة وبحث موضوعات اجتماعية أو اقتصادية لا ترقى لمستوى وضع او مناقشة سياسة البلاد داخليا او خارجيا ..

وفي كوبا مجالس تشريعية للاقاليم ، وعددها ١٤ مجلسا وهي تشكل بالانتخاب من بين اعضاء المجالس التشريعية المحلية ، فيما يسمى بالمرحلة الهرمية التي تكون عادة رحلة « تمثيلية » !

من يهز ميزان العدل ؟

وقد يثور سؤال : فهل شمولية الحكم مما يمس القضاء ويهز ميزان العدل ؟

الواقع أن النظام القضائي ، في كوبا ـ ذلك القديم الموروث ـ قد ألغي عام ١٩٧٣ ، وتم انشاء نظام آخر يقوم على نوع وحيد من المحاكم هي محاكم الشعب ـ وهذه المحاكم منها محكمة الشعب العليا ورئيسها يعين من قبل مجلس الدولة لمدة سبع سنوات ، ثم محاكم الشعب بالاقاليم وعددها ١٤ محكمة اقليمية ، ويتم تعيين رئيس كل محكمة منها من قبل محكمة الشعب العليا لمدة سبع سنوات ، والحد الادنى هو محاكم الشعب الأساسية .. وهي على مستوى الوحدات المحلية .. وهي تختص بنظر الجنح والجرائم البسيطة ، وقضاتها ينتخبون على المستوى المحلي .. والمعروف أن الحزب الشيوعي بلجانه يتحكم في كل الانتخابات ولرجال الجيش والداخلية محاكم عسكرية خاصة ! على أن أغرب ما في

الأمر ان كوبا الغت نظام المحامي الخاص ـ مع أنه في بديهيات القانون هو القضاء الواقف ، وبه يتمثل حـق الدفاع عن النفس وهو حق مقدس لكي يسيطر النظـام على « التقاضي » أو بمعنى أصح المحاكمات سيطرة كاملة فان المحامين موظفون تعينهم الدولة براتب شهري ، وفي كوبا مدع عام ووظيفته الرقابة على الشرعية الاشتراكية ويخضع للبرلمان ولمجلس الدولة .. وهو أحد أعضـاء محكمة الشعب العليا !

وممارسة العدالة في كوبا مكرسة للحفاظ على النظام دون اي أعتبار انساني آخر ، ولهذا فالعدالة ليسـت عدالة لانها تكتسح في طريقها اى شيء يمس هذا الصرح المقدس ، وقد يجري احتجاز المتهم في بيته قبل محاكمته ـ نظام تحديد الاقامة . وهذه أسعد الحالات ! ـ وقد يسجن قبل المحاكمة ويطول التحقيق دون نيابة .. اذ يجريه بوليس امن الدولة المسمى « فياما ريستا » ولا يخرج التحقيق من يد البوليس الا بعد الحصول على الاعتراف المطلوب ، والاسر لا تبلغ عن المعتقلين عنها . وليس للمتهم حق أختيار محاميه .. فالدولة هي التي تختار ، والمحامي لا يمكث مع المتهم الا وقتا قصيرا قبل المحاكمة ـ احيانا ساعة واحدة ـ ومن المحامين مـن يتغاضى عن هذه الساعة أما لانهم لم يبلغوا بالمحاكمـة الا صباحها .. وأما لانهم يعرفون أن لا جـدوى مـن المقابلة . ومن المحامين من يعترف بجريمة موكله رغم انكار الوكيل . والمحامون انفسهم في حالة ذعر ، والشهود عادة من ضباط أمن الدولة ، وبعض المحاكمات قد لاتتجاوز العشر دقائق . والحضور للجمهور محدود ـ والارهاب

على القضاة وارد .. خاصة اذا جاء أحد زعماء الحزب كشاهد .. فان هذا مؤشر للقاضي بأن يحكم بناء على أقوال هذا الزعيم . وقد حدث أن ذهب كاسترو للشهادة بنفسه ضد هوبيرماتوس . وهوبير هذا ليس أى نكرة فى تاريخ الثورة ــ انه رفيق فكر وسلاح لكاسترو ، وقد حاربا باتستا معا ، ولكن ماتوس كان صادقا مع نفسه ــ قد تحرك ضميره فسأل كاسترو ، أين وعد الحرية للشعب يافيدل ؟ راح كاسترو ليخطب فى ساحة المحكمة ضد ماتوس لمدة سبع ساعات .. قل لى هل يستطيع القاضى أن يسبح ضد التيار ؟

وكانت فى سجون كوبا وسائل تعذيب منها الضرب مرتين يوميا ، أو مشاهدة « حفلات » الاعدام ، ولكن منذ السبعينيات توقف هذا لأن النظام ادخل التعذيب بالتكنولوجيا التى استوردها من الاتحاد السوفييتى !

والسجين فى سجنه لا يتحدث الى غيره ، ولا يتسلم رسائل من أهله ، ولا صحف عنده ولا تلفزيون ، والمشى المسموح به هو المسافة بطول الطرقة أمام الزنزانة والسجناء يأكلون اللحوم المجمدة المستوردة من سيبريا ــ وهذه عقوبة اضافية ! ــ وهم يخضعون لبرامج غسيل المخ ، ومنهم من يجن ، ومنهم من ينتحر ، ومن يجتاز مدته بغير جنون أو انتحار لا يضمن الخروج من السجن .. وأكثر هؤلاء المحتجزين بعد قضاء العقوبة هم سجناء سجن بونياتو الرهيب ، ومن يخرج من السجن توضع على بطاقته علامة خاصة تقول انه سجين سياسى سابق ، وهذه العلامة تحرمه من التموين والبطاقة ، وتحرمه

من السكن والعمل .. وهو يعيش بها تحت الرقـابة الدائمة ..

كاسترو عاشق حرية .. ولكن !

هذا عن العدل .. وهو أول مايسال عنه الحاكم .. أمام الله ، وأمام التاريخ !

فماذا عن وعد الحرية التى سيق ماتوس من أجلها الى الاعدام ؟

كاسترو بحكم تكوينه عاشق حرية . هو من تفتحت عيناه على صور الظلم والقمع يمارسها الاقطاعيون على الفلاحين من أبناء شعبه ، وهو من تطوع للدفاع عنهم .. ثم وجد أن الدفاع عن الافراد لا يجدى لان القضـــية اكبر . القضية قضية شعب بأسره . فماذا فعل كاسترو وقد صارت اليه مقاليد الشعب ..

ان كاسترو منذ أعلن الماركسية اللينينية ترك الحزب الشيوعى « يقبض » على الحياة فى كوبا من القاعدة الى القمة . اقتصاديا وتعليميا ، وثقافيا واجتماعيـا ، وأصبح الشعار المرفوع « لا صـوت يعلو فـوق صوت الحزب » وبما أن كاسترو هو تجسيد الحزب والحكم والنظام فلا صوت يعلو فوق صوت كاسترو . فليس هناك نقد للسياسة الماركسية اللينينية ، أو لتوجهات الحكومة وهى تطبق هذه النظرية .. وقد القى البوليس القبض على بعض الطلبة وهم يكتبون على الحوائط فيفا أمريكا .. أو فيفا ريجان .. ومعناها تحيا أمريكا ويحيا ريجان ، فصودرت أملاكهم ، وحرموا من الوظائف ،

وأمضوا فى السجن اربع سنوات . وقد أبدى امريكى يقيم فى كوبا رايه بهدوء فى نشاط كوبا في جرينادا فسجن ست سنوات بتهمة ترويج دعـــاية للاعداء !
وجماعات الدفاع ـ الميليشيات ولجان الثورة ـ فى الاحياء الصغيرة تعطى الفرصة لضعاف النفوس للتنكيل بمنافسيهم عن طريق التقارير اليومية التى ترفع الى المستوى الاعلى . هذه التقارير أصبحت سيفا سريا مسلطا على الرقاب ، ولهذا يسيطر الخوف على الناس وليس للناس حق الاجتماع ، فهذا الحق مكفول للجان الدفاع عن الثورة فقط ..

ولابد من الانضمام الى جماعة من الجماعات التى يديرها الحزب كاتحاد العمال أو اتحاد الفلاحين .. فعلى هذه العضوية تتوقف حقوق كثيرة ، مثل حق الدخول للجامعة وحق الاصطياف .. والحصول على سلع بعينها ـ ولهذا فالانضمام الى هـــذه الجماعات أو الاتحادات لا يعكس اقتناع الجماهير انما يعكس لهفتها على الانتفاع بهذه الحقوق أو المكاســب .. واحترام الرغيف !

والانتخابات والترشيحات كلها بيد الحزب الشيوعى وليس للمرشح ان يدير معركة انتخابية لان الحوار قد يفتق الاتهامات ويكشف العورات والنقائص ..

واذا كانت الصحافة هى أداة التعبير ، ولســان الحرية فهى فى كوبا مملوكة للحزب ، والنقد المباح فيها والمتاح هو ماينصب على الاخطاء الصغيرة ، والفســاد « الفرعى » ومحطات الاذاعة وقنوات التلفزيون مملوكة للحزب ولهذا يتحكم فى نشرات الاخبار من الاحــداث

الدولية الى حادث سقوط طائرة والقرارات المشئومة المثيرة للسخط تذاع مرة واحدة في وقت لا سماع فيه ولا مشاهدة .. قد انتشرت حمى الزنجي في كوبا فلم يذع الخبر الا بعد شهور من انتشارها ، وكان مشفوعا بان المخابرات الامريكية هي التي سربتها الى كوبا فيما تسرب من مؤامرات على هذا الشعب ، مع ان شعب كوبا يعرف انها جاءت مع الجنود الكوبيين العائدين من مهمات في افريقيا ، ولا يستطيع صحفي اجنبي ان يتحدث الى مواطن او مسئول كوبي الا عن طريق الحزب .. والحزب يتحكم في الكلمة منظومة او منثورة . واقول منطوقة لان شعب كوبا ذواق شعر ومنه شعراء بالمئات . وقد عذب احد الشعراء بتهمة تهريب شعره للخارج فقال — ان تعذب شاعرا لانه يكتب قصيدة كان تعذب بستانيا لانه يزرع الزهور . وشاعر آخر سجن لانه طلب الهجرة ، ولان شعره كثر في الولايات المتحدة ، وشعره عاطفي ، وقد قيل له هذا لا يعفيك من العقوبة لان كل الشعر يجب أن يكون مكرسا لخدمة الثورة ، ويكتب الشاعر ارماندو فلارادس — وهو من اشهر شعراء كوبا — قصائده وهو فوق مقعد متحرك .. وحكايته انه هاجم كاسترو في مجلة جامعية أيام كان طالبا في الجامعة فسجن ، وسرب قصائده من سجنه فعذب بالتجويع حتى أصيب بالشلل !

اما الكلمة المكتوبة نثرا فقد تكون الاتحاد الوطني للكتاب والفنانين ليحكمها ويسيطر عليها . وهذا الاتحاد يتحكم في كل دور النشر وقد طالب كاسترو الكتاب بتنقية اقلامهم — ونقاد الاقلام عنده هو الدفاع عن الثورة

ومن يكتب كتابا فانه يناقش فى ندوة يحضرها مندوبون من الامن ــ الماريستا ــ والامن يعد تقريرا عن أصـــل الكاتب وفصل وجذور أسرته . والكاتب لا يأمن على نفسه حتى اذا لم ينشروا له ماكتب ، وقصة أماروجوميزبويكس قصة مشهورة فى كوبا لانه كان صحفيا مشهورا حتى اصطدم مع الحزب فى خلاف عقائدى ، فتحددت اقامته فى بيته ، ولكن تقريرا وشى بأنه يبقى الكهرباء فى شقته الى ساعة متأخرة من الليل ، وهذا اسراف فى الكهرباء ــ ويظل يدق على الالة الكاتبة ــ وهذا ازعاج للنائمين كما أن مايكتبه قد يكون ازعاجا للنظام ــ وقد صـــدر حكم بسجنه ثمانية أعوام !

ومن آلاء الثورة على شعب كوبا أنها محت الامية ، وجعلت التعليم مجانا . وفى عام التعليم تطوع الالوف لهذه المهمة ، ثم فتحت المدارس الحكومية أبوابها بعد أن أغلقت المدارس الخاصة بالجملة والتعليم اجبارى لمـدة ست سنوات ينصرف بعدها الطلبة الى الدراســات العلمية النظرية أو التكنولوجية ويتحكم فى الاعداد حاجة الدولة بناء على ماترسمه الخطة الخمسية ، ويفصـــل التلميذ أو حتى المدرس اذا لم يتجاوب سياسيا ، والآباء ياخذون الامور من قصيرها ــ كما نقول ــ ويدفعون باولادهم الى صفوف طلائع الثورة وهم فى سن الحادية عشر ليضمنوا لهم حياة علمية الى النهاية ، وبدون متاعب واكثر الطلبة لا يذهبون الى البيوت الا مرة واحـــدة فى الاسبوع ، فنظام الداخلية موضوع لتنمية الانتماء للحزب والحياة فى الداخلية « معقولة » وأسعد حالا من حياة

من يعيشون على البطاقة . والحزب يستثمر التلاميذ والطلبة فى حصاد القصب والبن .

وأولاد السجناء السياسيين لا يتلقون تعليما عاليا ، وأساتذة الجامعات ليسوا بمنأى عن العقاب ، فقد فصل ريكاردو بوفيل أستاذ الفلسفة الماركسية وسجن لانه ـ رغم أنه مبشر ايديولوجى ـ فانه يخالف فكر كاسترو . وحين خرج من السجن لم يتسلم عملا . وأسكنوه أمام مقر لجنة شعبية حتى يكون تحت الرقابة الدائمة ، وقد كتبت اللجنة تقريرا فيه أنه التقى صحفيا فرنسيا ، وساعة رحل الصحفى أودع ريكاردو مستشفى الامراض العقلية .. وطلب أن يلحق بزوجته وابنه اللذين يعيشان فى الولايات المتحدة فرفض طلبه !

والحرية الفنية حالها كحال حرية الصحافة وحرية التعبير شعرا ونثرا ، فالسينما مملوكة للدولة وموضوعاتها ثورية معلبة تنصب على التضامن الثورى مع افريقيا ، ابطال صنع السكر ، رذائل الأمريكيين ، « حمرية » المخابرات الامريكية .. وزراعة القمح .. وبناة الكوخ وحرب انجولا .. الخ ..

الراى العام ... فى طابور البطاقة !

يقول علماء الاجتماع أن نبض المجتمع يسمع فى المقهى لان المقهى هى سوق الراى العام ! وليس فى كوبا مقهى بالمعنى المفهوم ، وقد راحت أيام البوديجا .. وهى المقهى المطعم الذى كان يعشقه ارنست همنجواى ويتحدث عنه فى كتبه ، ومن البوديجا ماهو « آثار » فى

الحي القديم لهافانا . المقهى الكوبى فقير فيه القهوة ..
وقلما تجد فيه العصير . لان الجزيرة الغنية بالفاكهة
سواء كانت زراعة بشر أو عطية السماء في الغابة
تصدر الفاكهة طازجة أو معلبة الى الاسواق الاوروبية ،
وتحرم منها الشعب الكوبى ، والكميات التى تحتجز
كميات تعطى للفنادق التى تستقبل السائحين أو تستقبل
على وجه الخصوص ضيوف المؤتمرات ، ولهذا فنظرة
اهل كوبا لهؤلاء الاخيرين نظرة سخط لانهم يعرفون انهم
يسببون الازمات فى اللحوم والدواجن ، وبعض مايعطى
لهم من فواكه !

والذى حل محل المقهى هو طابور البطاقة .. وفيه
يتبادل الناس الاحاديث والاخبار ، وأكثرها بصوت هامس
والطابور طويل . وتستطيع أن تحجز فيه وحدك ..
وتذهب لبعض حاجتك فى مكان آخر وتعود فتجد
مكانك محجوزا ، ويقول بعض الكوبيين أن الطابور عودهم
الطاعة والنظام والصبر .. وكأنه انخراط فى سلك
التجنيد !

وقد تحسنت أذاعة كوبا منذ أطلق الامريكيون عليهم
أذاعة مارتى من فلوريدا .. تحسنت لكى يجد فيها
الكوبي مايجعلها مفضلة ! وعلى الاقل موازية لاذاعة
مارتى . والتلفزيون ككل تلفزيونات الكتلة الشرقية ..
برامجه موجهة . واقل القليل فيه رقصات وموسيقى
ساخنة من انتاج السود الذى يسرى حب الفن فى
عروقهم !

وفى كوبا ازمة مساكن ، ويحاول كاسترو أن يخرج
من الازمة ببناء بعض احياء جديدة ، ولكن سرعة البناء

لا توازى تزايد الحاجة ، وبالتالى تحل جانبا محدودا من الازمة . . وقد فكر فى تحديد النسل كأحد الحلول . . مع أنه كان ضد تحديد النسل فى بداية الثورة حين كان يريد الملايين التى يحارب بها الامريكيين . وتعيش الاسرة الكوبية فى البيوت العتيقة ــ ولكنها للحق نظيفة ــ وقد تعيش عدة أجيال فى بيت واحد ، وتتزوج الفتاة فتخرج من بيت أبيها الى بيت الزوج الذى يعيش مع أسرته ، ولو كان للاسرة ولد وبنت ، فالبنت ترحل وتحل محلها بعد ذلك زوجة الابن ، وقد يحدث الطلاق بين زوج وزوجة . . ولانه ليس للزوجة أين تذهب . . ولا للزوج فانهما يبقيان تحت سقف واحد . . وربما فى نفس الغرفة ، ومن البيوت الصغيرة مايزدحم بثلاث أسرات أو اربعة . . وقد تكون مفاجأة سعيدة للزوجة حين يدعوها زوجها الى المبيت فى فندق لانه اشتاق اليها ! والفساد الاخلاقى قائم فى كوبا مثلما هو قائم فى كل مجتمع . . أليست ازمة المساكن هذه سببا كافيا له ؟

وليس للاسرة الكوبية امكانية اصلاح البيت القديم . ولعل أزمة الاسكان اخطر ازمات كوبا جميعا . ومن المعلقين من يقول أن كاسترو لو سحب جيوشه من افريقيا لثلاثة اعوام فانه سيوفر ثلاثة مليارات من الدولارات تكفى لحل ازمة الاسكان . وهم يتندرون بهذه الازمة . . ففى الكوبيين خفة ظل لعلها قرينة الغضب المحتبس فى الصدور لانها تنفيس ! ــ وهم يقولون مثلا ان كاسترو ارسل جنوده الى افريقيا لانه لا يجد لهم سكنا فى كوبا ــ وانه دبر هجرة ماريل ــ التى هاجر

فيها ٢٥ الف كوبى الى امريكا ـ ليحل بهم أزمة الاسكان
بل يقولون ان أحكام السجن والاعدام حلول ضمنية ـ
عنيفة نوعا ما ـ لحل أزمة الاسكان !

الامل فى السياحة !

على أن كوبا تتوسع فى بناء الفنادق السياحية لانها امل للمستقبل ، وان كانت السلبية الاولى فى السياحة اليها هى طول الطريق ، وهى تجاهد لاجتذاب طائرات الشارتر الاوربية ، ولكنها لا تنوى تغيير طائراتها السوفييتية .. وهى طائرة فى عرف السائحين متخلفة وقصيرة المدى فى طيرانها ، المهم أن كوبا بدأت تدعو اليها المؤتمرات السياحية ، وجمعيات الكتاب السياحيين الدولية .. لكى تستعيد صيتها القديم كدولة سياحة .. ولكى تملأ خزائنها من العملات الصعبة التى تجعلها السياحة عملات ميسورة .. وسهلة !

وقد اشترت كوبا ألف تاكسى أبيض من الارجنتين من أجل السائحين .. لان التاكسيات القديمة تتجاوز فى عمرها عشرين عاما أو ثلاثين . وهذه التاكسيات الجديدة تؤجر بالدولار الامريكى .

وليس للكوبى حق اختيار وظيفته ـ الدولة هى التى تأخذ لوظيفة ما حسب احتياجاتها . وكل من يعملون فهم تحت سيطرة الحزب ، ومهمة الحزب تتمثل فى مراقبة انتاج العمال ، وانتاجية العامل ، وخفض نفقات الانتاج واتحاد العمال ضد الاضراب ، وضد التظلم وليس للعامل ان يشكوه ولا يستطيع ان يغير عمله الا باذن من الاتحاد

وبطاقته فيها رموز تدل على وزنه النضالى وضميره الاشتراكى وقدراته فى تحقيق خطة الانتاج ! وليس من حق أى مجموعة عمل تكوين اتحاد ما ، لان الاتحاد الوحيد هو الاتحاد المنبثق من الحزب ، وقد فكر خمسة عمال فى المناداة بتكوين اتحاد يدافع عن مصالحهم فقبض عليهم ، وحوكموا بتهمة الخيانة الصناعية ، وطلبت الحكومة اعدامهم فحكمت المحكمة بالسجن ، وغضب كاسترو لانه يعتبر تمرد العمال ظاهرة خطيرة فطلب لهم قاضيا آخرا صدر عليهم حكم الاعدام .. وقد صدرت أحكام فى هذه القضية على المحامين الذين ترافعوا .. وعلى القاضى الاول !

وليس فى كوبا قطاع خاص .. الا على هامش الحياة ولا يكاد يحس ففى عام ١٩٦٨ أمم كاسترو ٥٦ الف محل صغير منها أكشاك البيع ، والبضائع على أذرع الباعة المتجولين ، فهذه الاعمال فى نظر الشيوعية مظاهر راسمالية تشعل الانانية الشخصية وقد قال كاسترو : اما أن يدخل هؤلاء الانانيون ـ مجتمعنا أو ينعزلوا ، وفى الفترة من ١٩٧٦ الى ١٩٨٠ أتاح النظام للحلاقين والجناينية والميكانيكية والنجارين ، والكهربائية ... وبعض الاطباءوالمهندسين أن يمارسوا نشاطات خاصة .. ولكنهم اتهموا بعد ذلك بانهم ربحوا كثيرا ، وأن عليهم أن يعملوا للدولة أولا .. وقد انتهى الامر الى السماح لبعضهم بمزاولة اعماله بعد ساعات العمل الرسمية . والفلاح يبيع حصاده للدولة ، فى أيام السوق الموازية حين كثر الوسطاء وتفشت ظاهرة الدلالات قررت الدولة منع البيع فى هذه السوق ، فغضب الفلاحون لان هذا

يجبرهم على البيع للدولة بسعر الاذعان ـ وهو عادة سعر رخيص ـ ومنهم من استبد به الغضب فأحرق محصوله فصدر عليه حكم الاعدام لانه أحرق قوت الشعب !

فكيف ترى الناس فى كوبا .. وهل حقق كاسترو وعد الرخاء .. أو وعد الحرية كما صاح هوبير ماتوس ؟

هدنة أمريكية
كوبية في بورتوريكو

بين بورتوريكو وكوبا ميراث حضارى مشترك ، وقد كانت لهما طوال القرن التاسع عشر آمالهما الموحدة وهى الاستقلال عن أسبانيا ، وكلا الدولتين جزيرة من جزر الانتيل في بحر الكاريبى .. فكانهما ينتميان لمزاج مناخي ولونى وطبيعى واحد .. خاصة وأن بورتوريكو تتحدث الاسبانية مثل كوبا وهما بهذا تختلفان عن سائر الجزر حولهما .. والموزعة بين اللغتين الانجليزية والفرنسية . والمعروف أن الاقتصاد « الاسبانى » الكاريبى يعتمد على اقتصاد المتحدثين بالانجليزية ، ولان الاقتصاد حياة الشعوب فقد أبدت بورتوريكو أن ترتبط بالقارة الامريكية ــ بالولايات المتحدة على وجه الخصوص ــ ترتبط بها اقتصاديا على الا تفقد بورتوريكو نكهتها الثقافية ، وطعمها التراثى المستقل . وقد تخلت أسبانيا عن بورتوريكو عام ١٨٩٨ للامريكيين ، وأصبحت بورتوريكو أرضا تابعة للولايات المتحدة وتدير شئونها حكومة محلية بالوكالة من الولايات المتحدة . قد استمر هذا الوضع من عام ١٨٩٨ الى عام ١٩٥٢ ، ففي ٢٥ يولية من ذلك العام انضمت بورتوريكو الى كومنولث الولايات المتحدة باستفتاء ــ ٧٥٫٦٪ من الاصوات ــ والكومنولث هنا تركيبة دستورية فريدة . فبمقتضاه يصبح للجزيرة حكومة لها شبه سيادة . ولكنها خاضعة للولايات المتحدة دون أن تكون ممثلة في الكونجرس ــ

ومن حقها أن تشارك فى مؤتمرات انتخاب الرئيس الامريكى الا انها لا تعطى اصواتا للرئيس ونائبه ، والسبب فى حرمان ثلاثة ملايين نسمة ـ هى مكان بورتوريكو ـ من الادلاء بالاصوات الانتخابية ان القاعدة فى الولايات المتحدة تقول ان من لا يدفع الضريبة لا يشارك فى السياسة ! ولكن علاقة الكومنولث ترتب لبورتوريكو مميزات اخرى كالمواطنين . فكل بورتوريكى يحمل جواز سفر أمريكيا ، وتتمتع بورتوريكو بمظلة الدفاع الامريكية ، وعملتها الدولار ، والاسواق مشتركة ومتفتحة ، وقد حدثت فى بورتوريكو طفرة اقتصادية فى الفترة من عام ١٩٥٢ الى عام ١٩٧٢ بسبب الرواج وتنقل العمال ورأس المال والبضائع والخدمات بين الجزيرة والولايات المتحدة .. بل أثرى البورتوريكيون لانهم لا يدفعون الضرائب التى يدفعها الامريكى . واصبح هذا امتيازا لهم .

وبالرغم من هذا فان علاقة بورتوريكو بالولايات المتحدة كانت موضع حوار دائم ، ثم أصبح الحوار حادا عندما بدأت الاوضاع الاقتصادية تتدهور بسبب ظروف محلية وعالمية ، وهنا قال البعض أن أى تغيير فى الشكل السياسى للجزيرة قد يزيد الاقتصاد انهيارا .. وان استغلالها قد يهدد المصالح الاقتصادية والعسكرية الامريكية . ودأبت الولايات المتحدة على أن تعلن ان الموقف السياسى فى الجزيرة قضية داخلية لها .. وللولايات المتحدة ..

ومنذ السبعينيات دأبت لجنة تصفية الاستعمار فى الامم المتحدة على أن تذكر بورتوريكو كحالة استعمار ..

وكانت تستند فى هذا الى حكم المحكمة العليا فى الولايات المتحدة الذى نص على أن بورتوريكو تتبـــع الولايات المتحدة ولكنها ليست جزءاً منها .. وتستند الى القرار رقم ١٥١٤ الذى أصدرته الجمعية العامة للامم المتحدة وينص على أن الدول التى لها أوضاع مثل بورتوريكو يجب أن تعمل على نقل السلطة للشعب ..

كوبا تربطهـــا ببورتوريكو الوشائج التى قلنــــاها ، كوبا التى تفصلها عن الولايات المتحدة الاحن والضغائن التى ذكرنا قالت أن العلاقة بين الجزيرة والولايات عـــلاقة استعمارية ولهذا يجب أن تنسحب الولايات المتحدة عن بورتوريكو . والواقع أن كوبا بدأت اثارة قضـــية بورتوريكو فى اجتماع دول عدم الانحياز ــ القاهرة عام ١٩٦٤ ــ وصدرت عن هذا الاجتماع توصية بلفت نظـر الأمم المتحدة الى أعادة النظر فى موقف بورتوريكو على ضوء قرار ١٥١٤ ، وفى عام ١٩٦٥ طلب وزير خارجية كوبا أدراج القضية فى لجنة تصفية الاستعمار واعترضت الولايات المتحدة فاسقط الطلب الى عام ١٩٧١ حين نشط دور كوبا فى الساحة الدولية . قد أثارت كوبا القضية فى الأمم المتحدة لتناقش فى دورتها رقم ٢٦ .. ولكنها أخفقت أمام اللوبى الأمريكى . وفى عام ١٩٧٢ أثار الاقتراح الكوبى اهتمام لجنة تصفية الاستعمار بســبب حلول الصين الشعبية واندونيسيا وتشيكوسلوفاكيـا فى لجنة التصفية بدلا من الولايات المتحدة وبريطانيا وبولندا قد أمكن للاقتراح أن يمر بل واقرت اللجنة اقتراحـــا عراقيا بحق تقرير المصير والاستقلال فى الجزيرة .. وفى عام ١٩٧٣ أستمعت اللجنة الى اعضاء من الحـــزب

الشيوعى فى بورتوريكو .. وآلى اعضاء من حزب الاستقلال واقرت بعد ذلك بندا باستمرار النظر فى موضـــــوع بورتوريكو بل وحصل عضو الحزب الشيوعى على مقعد المراقب فى اللجنة ، ونجحت كوبا فى استصدار قـرار بارسال وفد لاستطلاع الموقف فى الجزيرة ، أى لجنة تحقيق ـ وقد أفتتح مجلس السلام العالمى مؤتمـرا للتضامن مع شعب بورتوريكو فى أول سبتمبر عـــام ١٩٧٥ . وفى نفس الوقت أخفق مندوب الحزب الشيوعى فى الحصول على مقعد كمرآقب فى الأمم المتحدة ـ مثل مقعد مندوب منظمة التحرير الفلسطينية ـ وأخفقـت كوبا فى تنفيذ قرار لجنة التحقيق المنبثقة عن لجنـة تصفية الاستعمار ..

نحن لا نخون مبادئنا !

وآلواقع ان فترة السبعينيات ، وعلى وجه التحديد منتصف السبعينيات كانت فرصة لاعادة ترميم الجسور بين الولايات المتحدة .. وكوبا لولا المواقف التى تثيرها كوبا ومنها موقفها من قضية بورتوريكو .. وتهليلهـا لهذه القضية فى الامم المتحدة ، وداخل مجموعة عـدم الانحياز ، وفى مجلس السلام العالمى ، وقد قـــال جيرآلدفورد ـ الذى أكمل مدة رئاسة نيكسون بعـــد استقالة الاخير اثر فضيحة ووترجيت ـ قال ان مانفعله كوبا هو محاولة لطرد الولايات المتحدة من بورتوريكو . قال هذا فى ديسمبر عام ١٩٧٥ ، وفى مايو من العـام

التالى قال وهو فى زيارة لبورتوريكو : أقول لهـؤلاء الذين يؤلبون المتآمرين فى بورتوريكو أن مايفعلونه هـو تدخل فى شئون بورتوريكو وأمريكا الداخلية .. وهذا عمل غير مشروع سيواجه بما يناسبه من اجراءات حاسمة وفى ٣١ ديسمبر عام ١٩٧٦ قال جيرالد فورد انه سيقترح على الكونجرس أن يعلن أن بورتوريكو هى الولاية رقم ٥١ ، وقد عقب على هذا مسئول فى البيت الابيض قائلا ان تصريح فورد يعكس مدى أهمية بورتوريكو بالنسبة للولايات المتحدة .

وذهب جيرالدفورد . وجاءت الانتخـابات بجيمى كارتر الذى قال : مالم يقـرر شـعب بورتوريـكو انه يريد أن يكون الولاية رقم ٥١ فلن يتحرك الكونجرس فى هذا الاتجاه ، وقال كارتر أن استفتاء فى الجزيرة اسفر عن ميل الى أن تبقى فى مجموعة الكومنولث . ولكن كارتر لم يقلل من تدخل كوبا فى بورتوريكو كعنصر معرقل لتطبيع العلاقات بين كوبا والولايات المتحدة .

ويبدو أن كوبا بدأت تستقبل رسالة الرئيس جيمى كارتر . ففى مؤتمر فى جامعة بتسبرج قال كارلوس رافاييل رودريجز — وهو أحد أهم ثلاثة فى كوبا بعد فيدل وراؤول — أن حكومة كوبا ما أرادت أن تستضيف مؤتمر التضامن مع بورتوريكو . ومعنى هذا أن كوبا لم تعد تجند تحويل بورتوريكو من قضية تتحمس لها الى قضية عالمية . وقال رئيس جمهورية كوبا بعد ذلك — وكان أوزفالد دورتيكوس — أن تبنى قضية بورتوريكو مـن جانب كوبا لن يقف حجر عثرة فى سبيل علاقات البلدين كوبا والولايات المتحدة !

ولكن كوبا تحركت في مؤتمر عدم الانحياز السادس الذي عقد في سري لانكا ، وحاولت ادراج بنود خاصة ببورتوريكو فاخفقت ، وأخفقت في الحصــول على قرار باعتماد حركة التحرير في بورتوريكو ممثلا شرعيا وحيدا ، وهذه الحركة يتبناها الحزب الشـيوعي في بورتوريكو ، وقد زار سكرتير هذا الحزب واسمه خوان ماري براس كاسترو بعد انتخابات عـام ١٩٧٦ وهي الانتخابات التي حصل فيها الحزب على أقل من ١٪ من الاصوات في الجزيرة ، فيما وصف بالخيبة الكبرى . وقال خوان أن كوبا هي حاملة لواء استقلال بورتوريكو .

والواقع أن حماسة كوبا لبورتوريكو هبطت بعـد الانتخابات والنتيجة المخزية للشيوعيين فيها . ولـكن الولايات المتحدة تثير سؤالا محددا هو : هل هنـاك علاقة بين حكومة كاسترو والارهابيين في بورتوريكو . وقد اجابت على هذا السؤال بالايجاب لجنة أمريكيـة تمسكت بتصريحات الحزب الشيوعي المؤيدة للارهاب ، وقد جرت محاولات أمريكية لاغراء أناس بالشهادة في هذا الاتجاه مقابل اسقاط جرائمهم ، بل تطوع رفاييل هيرنانديز حاكم بورتوريكو فقال ان كوبا تدرب وتساعد الارهابيين لقلب نظام الحكم ، ولكن رغم هذا كله فان مسئولا في البيت الابيض قال « اننا لا نملك الدليل على أن كوبا تستعمل عضلاتها ، أن كل ما تقدمه الآن هـو الخطب واستضافة زعماء الحزب الشيوعي !

واصبح استيضاح موقف كـوبا من الارهاب في بورتوريكو قضية ، وطارت بربارا والترز التلفزيونيـة الامريكية المشهورة لتسأل كاسترو الذي قال : لا أحد

يستطيع أن يتهم كوبا بمساعدة العنف ، أو بدور في بورتوريكو ، نحن نعطى هذا الشعب دعما سياسيا ومعنويا ، ونحن نخون مبادئنا ان لم نفعل هذا ..

والواقع هو هذا .. لان كوبا تتطلع الى الولايات المتحدة وفى أعماقها أمل أن تمد اليها الجسور ــ انها أحست أن بورتوريكو ذات أهمية خاصة عند الولايات المتحدة ولهذا حصرت جهودها فى الامم المتحدة والمحافل الدولية .. والاحرى أنها فترت فى هذه الجهود ، ثم ان خيبة من تؤيدهم فى بورتوريكو أصابها بصدمة . ان خوان ماری براس من الحزب الشيوعى لم يحصل على اكثر من ٧٥ر٪ من الاصوات فى انتخابات حاكم الجزيرة ــ اى أقل من ١ ٪ من الاصوات ــ أما روبين بريوس من حزب الاستقلال فحصل على ٦١ر٢١٪ من الأصوات ، ويقول المحلل السياسى أوستن لنسلى أن الولايات المتحدة لا تتوقع من كاسترو ــ بسبب تركيبته الثورية أن يتخلى عن المناداة باستقلال بورتوريكو ، ولكنها تتوقع منه أن يخفف لهجته ، وان يحجب سلاحه !

وقد يدخل الموقف الكوبى الامريكى البورتوريكى بجملته فى ساحة المهادنة . واليقين أن مهادنة أخرى تمت فى أمريكا اللاتينية منذ بدأت كوبا رحلة العودة اليها .. بعد أن طردت من البيت اللاتينى عام ١٩٦٤ . باجماع لم تشذ عنه الا المكسيك .. قد حمل عام ١٩٧٠ ريحا طيبة لكوبا ، فقد قدم رؤساء فنزويلا وترينداد وتوباجو طلبا للمجلس الاقتصادى والاجتماعى لدول أمريكا اللاتينية باعادة العلاقات مع كوبا . وقد رفض الطلب الا ان الليندى رئيس شيلى أعاد العلاقات وزار كاسترو

شـــيلى وتوقف فى اكوادور وفنزويلا أ وفى عـــام ١٩٧٢ ترأ ت المكسيك وبيرو وشيلى والارجنتين الدعوة الى رفع العقوبات عن كوبا .. وكان هذا الموقف الذى تكرر عام ١٩٧٣ نتيجة طبيعية لاعتدال كوبا ، وتخليهـا عن الحركات الثورية الشيوعية ، وتأييدها لبنما فى نزاعها مع الولايات المتحدة حول قناة بنما .. بل ان وجـود كوبا المتعقل فى أمريكا الوسطى كان له صـــدى عند الاسرة اللاتينية ، فكاسترو هومن نصح الساندنيستا ـ وقد وصلوا للحكم بمساندته ـ بعدم القضاء عـــلى القطاع الخاص حتى لا تتكرر التجربة الكوبية فى نيكارجوا وراحت دول صغيرة تقيم العلاقات مع كوبا بعد شسيلى مثل باربادوين وجويانا وجامايكا وترينداد وتوباجو .. ثم بيرو والارجنتين .. ثم فنزويلا . وقد اهتزت عـــلاقة كوبا مع بيرو وفنزويلا بعد أحداث الهروب الكبير الذى بدأ باللجوء لسفارتى البلدين فى هافانا وأنتهى بالفرار الكبير فى عملية ماريل .

وقد حافظت كوبا على علاقاتها الطيبة مع المكسيك وابقت على العلاقات التجارية معها ، ومدت جسرا يعبر عليه السائحون الى كوبا ، ونقلت تكنولوجيا المكسـيك وأكثرها أمريكى ..

ويتحدث رئيس كولومبيا الى كاسترو تليفونيا . وقد زار أورتيجا رئيس نيكارجوا كوبا . وعندما صار الحكم فى أوراجواى للمدنيين بعد ٢٠ عاما من حكم العسكريين عادت العلاقات التجارية والدبلوماسية بين البلدين ، والارجنتين تتعاطف مع كوبا وقد اقرضتها فى عـــام ١٩٨٥ حوالى ٩٠٠ مليون دولار .. والأهم من هـــذا

أن الفونسين رئيس الارجنتين زار كوبا فى أكتوبر ١٩٨٦ ولكوبا مشروعات مع البرازيل ، ويتجول سليفيو روديجز ـ وهو أشهر المغنين فى كوبا ـ فى عدد من الـدول اللاتينية .. ولجولاته مغزى سياسى اكثر منه فنى . وظلت كل المؤشرات تدل على أن كوبا عائدة للبيت القديم .. وقد حدث ذلك فى يونية عام ١٩٨٥ .. فى البرازيل .. حين تقرر ادراجها من جديد فى عضوية منظمة دول أمريكا اللاتينية ..

ويبدو أن الولايات المتحدة لا تعارض هذا .. ان من العقلاء فيها من يرون أن كاسترو فى حاجة الى أن تسترخى اعصابه حتى يكف عن رعونته الشيوعية ، وهو اذا وجد نفسه فى أحضان الاسرة القديمة ، واحس الدفء يسرى الى أوصاله منها فقد يعوضه هـذا عن احساس العزلة التى عانى منها طوال ربع قرن من الزمان وقد يطمئنه الى أنه سيجد الصدر الحنون ان غدر به الاتحاد السوفييتى .. فأحيانا ينتاب الزعماء فى هذه المواقع المخيفة أحاسيس شك غريبه ؟ ومريبه !

البحث عن التكنولوجيا !

وقد غمضت الولايات المتحدة الطرف عن الابواب التى تفتحت لكوبا فى العالم الغربى ، وان كان أكثرها يتفتح على استحياء وبتقتير شديد . تستطيع أن تستثنى فرنسا من المشى فى زفة الحصار المفروض على كوبا من البداية ففرنسا تسلك دائما مسلكا مستقلا فى سياستها الخارجية حتى ولو تعارض مع بعض ماتقرره السياسة

العامة للسوق الاوربية ، وهى حريصة على أن تتجاهل النداء أو التلويح الامريكى بانتهاج خط ما على دولة ما فى موقف ما . فرنسا هى فرنسا .. وسياستها ترسم فى قصر الاليزيه وليس فى أى مكان غيره . وصحيح انها متهمة دائما بأنها تمضى فى سياستها وراء تجارتها أو وراء مصلحتها ، ويسمونها بقالتها السياسية — ولكنها ترضى غرورها الوطنى أولا ! فرنسا تريد حلا لمشاكل امريكا الوسطى ، وهى فى هذا الشأن تتشاور مع كوبا وبين الدولتين لجان اقتصادية وثقافية وعلمية مشتركة وقد ساعدت فرنسا كوبا فى الدراسات الطبية .. وهى متقدمة فى كوبا تقدما مشهودا به — وانشأت فى هافانا مركزا ثقافيا فرنسيا كبيرا . وخفضت التعريفة الجمركية على الصادرات الكوبية لفرنسا ، وقد توسطت فرنسا فى معاملة كوبا معاملة خاصة داخل السوق الاوربية . وهى تساعدها فى تطوير صناعة السكر ، وتطوير أسطول الصيد ومكافحة التلوث .. وهى مشكلة تتفاقم الان فى كوبا .

ولليابان علاقات طيبة مع كوبا . والمعروف أن اليابان وهى تتعامل مع الدول تضع الاعتبار الاقتصادى فى المقام الاول لانها تعتبر نفسها دولة طلقت السياسة منذ هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية ، وخططت لانتصار اقتصادى ساحق على أعدائها السابقين . بل وعلى حلفائها ، وهى لهذا تفتح الاسواق دون أن تبحث فى الحساسيات ، وتوقع الاتفاقات التجارية وليس أمامها الا مصلحتها الخاصة ، واليابان هى أكبر نوافذ كوبا على التكنولوجيا الحديثة التى تحاول كوبا اللحاق بها

بعد خيبة الانماط السوفيتية المطبقة فى مصانعها ..

وقد كان عشم كاسترو في أسبانيا كبيرا .. باعتبارها الدولة الام لكل الاسرة اللاتينية ، ولكنه غضب منهـــا مرتين : مرة لانها انضمت للسوق الأوربية وهو مايجعلها ميالة لمجاملة الولايات المتحدة ، ثم ان انضمامها للســوق يؤثر على مكانتها كدولة تحتل المكانة الثانية فى العلاقات التجارية مع دول الغرب بعد اليابان . وغضب كاسترو من اسبانيا مرة ثانية لانها وقفت ضد طرحه الخــاص بالديون .. وضرورة توقف الدول المتأزمة عن سدادها أسبانيا لم يعجبها هذا الكلام فهاجمته .

وبين كوبا وكندا علاقات تجارية طيبة . واهم مافى هذه العلاقات السياحة . والمعروف أن الكنديين يحتلون المركز الأول بين من يسيحون الى كوبا ، والمعروف أن من يعبر المحيط الأطلنطى من أوربا الى كوبا لابد أن يقف وقفة فى احد مطارين ، اما فى جندر فى جــــزيرة نيوفوندلاند وهى تابعة لكندا .. أو فى مونتريال ، ومن هذين المطارين يكمل المشوار جنوبا . والمنفذ الثانى الى هافانا هو المكسيك . يعبر المسافر المحيط الى مدينـــة المكسيك فى اقصى الغرب ، ثم يعود بطائرة كوبيـــة أو مكسيكية الى هافانا .. طائرا لساعتين ! فالطائرات الامريكية لا تقلع الى كوبا .. والطائرات الكوبية لا تحط فى المطارات الامريكية . باستثناء طائرة واحدة تذهب الى ميامى مرة فى الأسبوع .. وهى جسر بين من رحلوا ومن بقوا .. وجسر الرسميين الامريكيين والكوبيين . وكل مسافر عليها محقق ومدقق من قبل السلطتـــين الامريكية والكوبية لان طائرة ميامى هذه اكثر طـــائرات

العالم حساسية وخطورة !
كندا ترسل السائحين الى كوبا .. يطيرون فوق السماء الامريكية والولايات المتحدة لا تغضب . لانها ارخت كثيرا فى حصارها الاقتصادى على كوبا .. خاصة بعد أن أحسنت أن النظرية لم تحقق نجاحا .. ليس فقط من مؤشر حركة الفارين فى ماريل . بل من تزايد عدد الطالبين للهجرة .. حتى يقال أنهم أكثر من نصف مليون نسمة ، والتقدير الامريكى أنه لولا الخوف لرصد نصف شعب كوبا اسماءهم فى كشوف راغبى الهجرة ..

مصداقية .. مساعدة كوبا !

والاتحاد السوفييتى لا يتخلى عن مسئولياته عن كوبا بالذات . وصحيح أن جورباتشيف ينتهج الان خطا جديدا فى التعامل مع من يدورون فى فلك الاتحاد السوفييتى الا أنه لا يريد أن يهز يقين كوبا فى الكرملين ، ولا يريد أن يفقد موسكو مصداقيتها مع الشعوب التى اعتنقت نظريتها . أن سياسة جورباتشيف هى رفع كفاءة الاقتصاد السوفييتى ، وجعل الدول الشيوعية تعتمد على ذاتها .. حتى لا تنهار اذا ماتخلى عنها الاتحاد السوفييتى فى ظروف قاهرة ، وقد اختلف جورباتشيف مع كاسترو حول نظرية الاخير فى سداد الديون أو بمعنى اصح حول نظريته فى عدم سدادها ، ورغم هذا زار ادوارد شفارد نادزه وزير الخارجية السوفييتى كوبا بمناسبة الاحتفال بمرور ربع قرن على اقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين . وحدثت أزمة بين البلدين بسبب

سعر السكر والبترول .. ولكن الازمة حوصرت . وبلغ الميزان التجارى بين كوبا والاتحاد السوفييتي ثمـــانية مليارات دولار خلال عام ١٩٨٥ ، وفى نهاية ذلك العـام دعم السوفييت كوبا بعد الاعاصـــير التى اجتاحتها ، فأرسلت لها السفن بالارز والدقيق ، والاسمنت والمواد اللازمة لاعادة بناء الاسقف التى أطـــاحت بهــــا الاعاصير ..

وقد أكد الكوميكون ـ وهو التجمع الاقتصادى لدول الكتلة الشرقية ـ على ضرورة دفع النمو الاقتصادى فى كوبا وفيتنام .

وعادة لا يجرى التنسيق بين الخطة الخمسنية الكوبية وبين مايمكن ان تقدمه دول الكوميكون لدفع النمـــو الاقتصادى فى كوبا ..

ان الاتحاد السوفييتي مع الدول الدائرة فى فلكه يحرصون على ان تتخطى كوبا كل العقبات ، وأن تستمر التجربة فيها مهما كان الثمن الذى يدفعه المعســـكر الشيوعى .. ولكن هذا الاقتصاد المحقون بالمساعدة ليس هو الامثل فيما عرفت الشعوب من نظريات وتطبيقات ..

وكوبا عضو فى الامم المتحدة ، وهى جمة النشــاط والتوثب فى مبنى علبة الكبريت المطل على نهر الهدسون فى نيويورك ، ولهذا استطاعت أن تظفر باثنين واربعين مشروعا من برنامج التنمية الخاص بالامم المتحــدة منها انشاء محطة بحوث للمعادن الرسوبية ، وتطهير خليــج هافانا . والحفاظ على هافانا القديمة لانها تراث . وادخال الكمبيوتر فى الاتصالات ، وأنتاج الورق من مصاصة القصب . وكوبا تشغل منصب نائب رئيس وكالة التنمية

الصناعية عن امريكا اللاتينية ، وقد زارها ده كويلار سكرتير عام الامم المتحدة فى مايو عام ١٩٨٥ لحل مشكلتى امريكا الوسطى والجنوب الامريكى .. وفى هذا دلالة كافية على أن كاسترو استطاع أن يرتب لنفسه مكانة دولية . وهى عضو فى النظام الاقتصادى لدول امريكا اللاتينية وقد ترأس وفدها اجتماعات فنزويلا فى ديسمبر عام ١٩١٥ . أى بعد سبعة أشهر من عودة كوبا الى مجموعة الدول اللاتينية ..

وكوبا أيضا عضو فى الكوميكون . ومنظمة السكر الدولية ـ وهذه المنظمة تحاول أن تجعل من نفسها قوة مثل قوة الاوبك ، وهى مجموعة الدول المنتجة للبترول . وتطلق المنظمة على نفسها اسم ايزو .. وقد حاولت كوبا أن تطرح اتفاقا دوليا حول الحصص التصديرية لكل دولة . بغرض اعادة التوازن الى السعر العالمى للسكر . ولكن طرح كوبا خاب لأن كوبا تتعامل مع الدول الاشتراكية بعيدا عن النظام الحر للسوق ..

وفى فبراير عام ١٩٨٥ انضمت كوبا الى الايكو . والايكو هي منظمة البن العالمية ، وقد أهلها للعضوية انها تنتج عشرة ملايين طن من البن فى العام .

الخروج من العزلة .. بالمؤتمرات !

اذا كان كاسترو قد استثمر عقدة المعزول فاخترق الحصار ومضى الى العالم بجنوده ـ وهناك من يقول أنهم انكشارية القرن العشرين ـ وبعلاقاته المتراوحة بين الدهاء الشديد والحسابات الدقيقة ، فانه حرص على أن يقدم

لشعبه صورا من نجاحات بلاده . تتمثل في المؤتمرات التي يدعوها للانعقاد في هافانا . ومن أجل هذا حول ناديا كان للارستقراطية الامريكية في هافانا الى مبنى للمؤتمرات . ومتوسط عدد المؤتمرات التي تنعقد في هافانا كل عام بين ٣٥ و ٤٠ مؤتمرا ، أي بمعدل ثلاث مؤتمرات لكل شهر . ومن أمثلة هذه المؤتمرات اجتماع رجال الدين المسيحي من أجل عدم رفع الديون واجتماع طلاب المدارس العليا لنفس الغرض . ومؤتمر منع سباق التسلح وقد حضره اربعون باحثا من آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية وثلاثمائة كوبي ، ومؤتمر المرأة والصحة وكان شعاره الصحة للجميع في دول عدم الانحياز . ومؤتمر اتحاد نقابات عمال الدول الشيوعية ، والمؤتمر الثالث عشر لبريد أمريكا واسبانيا . وندوة أمريكا اللاتينية حول أنهاء الاستعمار ـ وكانت تحت اشراف الأمم المتحدة ومؤتمر المرأة القارى وحضره من ٢٤ دولة لاتينية ٢٢١ مندوبة ، واجتماع الاحزاب الشيوعية لدول أمريكا اللاتينية والكاريبي ، واجتماع اتحاد صحفي أمريكا اللاتينية والكاريبي ، واجتماع اتحاد صحفيي أمريكا نقابات عمال آسيا اللاتينية لبحث مشكلة الديون ، وقد أصدروا وثيقة هافانا الداعية لاقامة نظام اقتصادي عالمي جديد ، ولعدم سداد الديون .. وفي هافانا عقد المؤتمر العام الاول لدول أمريكا اللاتينية لبحث مشكلة الديون حضره ١٢٠٠ شخصية من ثلاثين دولة . وعقد مؤتمر الصهيونية والمجتمع الدولي الذي نظمه مركز دراسات الشرق الاوسط . وقد شارك فيه هاني الحسن مستشار ياسر عرفات ، ومؤتمر اتحاد أمريكا للسكك

الحديدية وهو يعقد مرة أخرى فى هافانا عام ١٩٨٧ بمناسبة مرور ١٥٠ سنة على انشاء القطار فى كوبا ، وعقد مؤتمر للهندسة الوراثية حضره من مصر الدكتور مصطفى الجبلى رئيس اللجنة القومية للهندسة الوراثية .. وعقدت مؤتمرات عن أمراض الدم وأمراض قصب السكر ، والامراض الوبائية .. الخ ..

وكلها لكى يصفق الشعب لضيوفه القادمين من كل انحاء العالم ، فيحس أنه ليس معزولا ، ويحس أن جزيرته وان كانت بعيدة فى الكاريبى الا أن الدنيا كلها تطير اليها .. فهل تلقى الشعب الكوبى رسالة كاسترو من المؤتمرات . وهل داخله الاطمئنان واحس وآمن بأنه لم يعد معزولا .. ولا مرزولا طبقا للنظرية الامريكية ؟!

كانت كوبا كاثوليكية . بل وكاثوليكية عميقة فى تدينها كطابع كل الكنائس المنبثقة عن الكنيسة الاسبانية ، وكان الكوبى يعلق على صدره صليبا ، والكوبية أيضا ، وكانت الكنائس مفتوحة .. واكثر المصلين فيها من الزنوج .. لان الدين عند الزنوج رمز الخلاص من الرق . ولان بيت الله هو المكان الوحيد الذى يحسون فيه المساواة التامة !

وجاء كاسترو .. وقد كانت أمه ذات الجذور اللبنانية متدينة ، وقد ترك الاباء اليسوعيون الذين أمضى بعض سنى طفولته يتعلم على أيديهم بصمة على حياته ، بل يروى عنه انه لما اقدم على الهجوم على المونكادا وفشل الهجوم فر واختبأ عند قس كاثوليكى ، وهذا الاخير رفض تسليمه الى زبانية باتستا قبل أن يأخذ وعدأ بمحاكمة عادلة .. اذن فكل خلفيته توحى بأنه لن يناصب الكنيسة

العداء .. ولكنه فعل .. انه يعتقد أن الكنيسة كانت في خدمة الاغنياء ، ولهذا شحن نصف القساوسة على سفينة أبحرت بهم الى أسبانيا والبعض منهم اثر أن يذهب الى الولايات المتحدة ، واغلق عددا كبيرا من الكنائس ، وأحاطت نظرات الريبة بمن يترددون عليها ، وفي أيامه الاولى .. حين واجه العالم كاسترو بأنه نكل بالكنيسة قال :

ـ أنا لست ضد المسيحية ، أن بينها وبين الشيوعية أشياء كثيرة مشتركة .

ولكنه لم يمض في تعامله مع الكنيسة على مصداقية من هذا القول ! فالتعليم الديني ألغى وحل محله التبشير بالماركسية اللينينية ، وقد عول كاسترو على أن يتلقف الاجيال ويضعها في قالبه ، وينأى بها تماما عن الدين .. حتى أن من الابناء من كانوا يبلغون عن آبائهم الذين يختلفون الى الكنائس ، وكأنهم يبلغون عن جرائم ! واذا كانت الاعياد ترتبط في أذهان الاطفال باللعب فان كاسترو حرم بيع اللعب في أيام الاعياد .. وافسح لها في عيد ٢٦ يوليه الذي يحتفى به أكثر من عيد الميلاد .. وكان ميلاد ثورته أهم من ميلاد السيد المسيح . وقد كانت السلطات تلقي القبض على من يمارس شعائر الدين ، وأصدر قرارا يحد من فرص المتدينين في التعليم ، وأصدر قرارا آخر بمنع بناء الكنائس ، واختفت أشجار عيد الميلاد من كوبا ، وأعلن أن الاحتفال بالجمعة الحزينة ـ وهي عند المسيحيين جمعة الالام التي استغرقها صلب المسيح ـ قد الغى وحل محله الاحتفال بفشل الهجوم على خليج الخنازير ، وطبق هذا على سائر الاعياد . فأحل الاعياد الرسمية والحزبية محل الاعياد الدينية على مدار

العام . وحول كاسترو بعض الكنائس الى مخـــازن للاسمدة .. واذا تحدث طفل فى المدرسة الى طفل آخر عن الدين والله والروح القدس فهذا أمر جلل يستدعى احضار الاب واعطاءه درسا فى كيف يتجنب تلقين ابنه معتقدات من العهود المظلمة ، ويعرف كل أب أن عـدم الانصياع قد يؤدى الى القبض عليه .. والقس فى الكنيسة يقول لمن يبلغونه من الاطفال والصبية أن مايقوله لهم هو أسرار خاصة لا يجوز ترديدها على مسامع الغير ، وتعميد الاطفال مغامرة ، والتعميد طقس كنسى مقـدس ، وان تعثر على قس يقوم بالتعميد فهذه مخاطرة اخـــرى ، ويذهب الى كل كنيسة مراقب من مجلس الحى ولهذا يتحاشى الناس الذهاب الى الكنائس فى احيائهـــم .. ويذهبون الى كنائس بعيدة ، وفيها عدد كبير من الناس يمكن أن يتوهوا فى زحامه ، أو هكذا يتصورون .. لان كل الكنائس مخترقة بعيـــون الماريســـــتا .. أى المباحث !

ويتعرض رواد الكنائس للضغوط الاقتصــــادية ، والحرمان من الوظائف العليا ومن الدراسات الخاصـــة بالاقتصاد والسياسة والفلسفة ، ولا سبيل أمامهـــم للالتحاق بالجامعات، وهم لايحصلون على السلع المعمرة ـ كالثلاجات والتليفزيونات ـ ولا البيوت الجديدة مثـــل مدينة الامار .. لان من يحصل على شقة فى هذه المدينة يوقع على تعهد بالا يثبت اى شىء دينى على الحوائط .
ويطارد الحزب كل الجماعات المتفرعة عن الكنيسة أو عن السيناجوج .. بل ويقدم للمحاكمة شهود يهوه ،

والبروتستانت ، والادفنتست ، والمعمدانيين ، وضبط نسخة من الانجيل مع قس تهمة هى « ترويج » دعاية دينية مضادة لنظام الحكم .. وقد شهد بهذه الاتهامات والمحاكمات الواعظ سيرجيوا براخوا أمام لجنة حقوق الانسان فى باريس .. وقال انهم ضربوه بالرصاص فى ساقه لانه كان يخفى انجيلا فى زنزانته ، وقطعوا ساقه وشدوه من الاخرى ..

لن تدق الاجراس !

ولكن كل هذه القسوة لم تستطع ان تقتلع الدين من القلوب ، بل لعل كاسترو وهو فى أوج معاناته من الحصار المفروض عليه وجد فى الدين طاقة يطل منها على العالم ، وربما ورقة يلعب بها . فلكى يعود كاسترو الى أسرته اللاتينية سمع من يقول له أن هذه الأسرة أسرة متدينة ، والكنيسة فيها مقدسة ، عد الى الدين قبل أن تمد يدك !

عرف كاسترو أن فتح الباب لعودة الدين هو الذى سيفتح له أبواب امريكا اللاتينية ، وكان قد ظهر فى هذه القارة ثيولوجى جديد بدأه كاردينالات البرازيل وهو ينادى بان الدين لا ينبغى أن يكون صلاة وعبادة فقط بل يجب أن يوقف لرفع مستوى الفرد ، ولرفع الظلم عنه ، وقد حاول الماركسيون استثمار هذا التيار . وقال كاسترو قبل ان أكون ماركسيا فانا مسيحى ..

وفى نفس الوقت فان الكنيسة فى كوبا لم تناهض الثورة ، خاصة بعد ان أصبح كل شىء فى قبضة الحزب

قد سلمت الكنيسة بأن الثورة حققت انجازات اجتماعية .. وأراد كاسترو أن يرد لها هذا الجميل فقد اجتمعا مع مجلس الكنائس الكوبى — فى الربع الاول من عـام ١٩٨٦ ، حضرته وفود من الكنيسة الامريكية ، وتقررت فى هذا المؤتمر مبادىء التعايش السلمى بين الكنيسة ونظام كاسترو !

ولكن بدا أن كاسترو يريد أن يستثمر الكنيسة أكثر مما تستثمره ، فعندما بدأ معركته مع القـوى العظمى والفيلان الاقتصادية بسبب الديون ، استحث الكنيسة ان تقول كلمة .. فقال مجموعة من الأساقفة أن الديون — ديون الاغنياء عن الفقراء من الدول — تعتبر لا اخلاقية من ناحية العدل الاجتماعى .. ودعا كاسترو كنائس أمريكا اللاتينية الى مؤتمر فى هافانا صفقت فيه لفكره فى وقف سداد الديون تمهيدا لالغائها ..

ولكن البابا يوحنا بولس بابا الفاتيكان كان من رأيه أن تدخل الدين فى شئون الحكم خطأ .. وأن الكنيسة ليست مهمتها تأليب الشعوب على حكامها . ومن هنـا بدأ كاسترو يفكر فى دعوة البابا يوحنا بولس لزيارة كاسترو .. لان هذه الزيارة يمكن أن ترفع مكانته فى أعين الاشقاء اللاتين ، وتزيل الكثير مما علق به أمام الامريكيين .. وقد كان البابا فى زيارة لهايتى عندما سئل : هل تزور كوبا ؟ فقال ببساطة لو وجهت لى الدعوة فسـوف أزورها ! . قال هذا رغم تجربته المريرة فى نيكاراجوا حين تعرض للقتل ..

وما أن سمع كاسترو تعليق البابا حتى قال : أنا أوجه الدعوة لقداسته فوراً ..

وقد يزور البابا كوبا .. ولكن لا أحد يعرف مستقبل

كنيسته قبل هذا أو بعد هذا ؟.. ولا أحد يمكن أن يخمن ماذا سيكون موقف كاسترو منها بعد أن يستنفد اغراضه .. ويعود الى القبيلة اللاتينية . ويدمغ سداد الديون ويغير نظرة الأمريكيين اليه ، لانه ترك اجراس الكنائس تدق .

بالمناسبة فان السفارة السوفيتية ترتفع بجوار برج كاتدرائية كاثوليكية فى هافانا .. أكثر طولا .. كأنما تقول بالحجارة أن الشـــــيوعية أطول باعا .. وأعلى هامة !

حقن صناعية .. الى متى ؟

ولا أحد يعرف كيف يمضى اقتصاد كوبا . انه بعـد ٢٧ عاما من الثورة يعيش على مايمكن أن يسمى بالحقـن السوفييتية . قد عرفنا أن السوفييت يدفعون معـونة سنوية قدرها أربعة ملايين دولار . فالى متى ؟ أن توجهات جورباتشيف هى أن شعب الاتحاد السوفيتى فى ضائقة وفاقد الشيء لا يعطيه ، ولهذا فعلى الدول التى تعتمد على الشعب السوفييتى ان تبدأ رحلة الاعتماد على النفس . وضرب مثلا بكوبا وفييتنام ..

ولاشك فى أن الاتحاد السوفييتى لن يترك بوتيكه البعيد يفلس ويغلق أبوابه . انه لن يتخلى عنها .. ولكن الى متى يمكن أن تعيش كوبا على اقتصاد صناعى ؟ ان من المعلقين من يقول ان كاسترو ــ فى سبيل مجـــده الشخصى اراد أن يصبح نجما فى افريقيا ، وعلما فى مجموعة عدم الانحياز ، وهو لم يســـــتعمل فى هذا

الدبلوماسية الهادئة .. بل استعمل فرق الانكشارية التى قلنا انها تتكلف ثلاثة ملايين دولار كل مطلع شمس ، فهل يستطيع شعب الطوابير الجائعة .. ان يبذل هذا البذخ وهو فى أشد الحاجة اليه ؟ وما اهمية انجولا واثيوبيا او أى موقع فى القارة السوداء عند الكوبى الذى حرموه من ولده ليقاتل فى هذه المجاهل ضد شعوب ليس فيها عدو واحد له .. وفي ساحات لم يرق فيها من قبل قطرة دم ؟ أن حلول السوفييت فى عهد كاسترو لا يقل ضراوة .. واستنزافا للبلاد من وجود الامريكيين فى عهد باتستا .. وربما كان الوجود الامريكى اكثر نفعا واقل تكلفة لان امريكا ظلت متنفسا لكل كوبى يريد الهجرة . ولان رءوس الأموال المستثمرة محمولة على محفة التكنولوجيا العصرية كان يمكن أن تطور بسرعة أكثر ..

والشعب يعتبر كاسترو هو المسئول عن تجييش كوبا ، وعسكرة الشعب ، وقد قلنا أن فى كوبا أعلى نسبة مجندين فى العالم كله ، وقد فعل كاسترو هذا ليدافع عن بلاده ، وعن نفسه ـ خاصة بعد حادثة خليج الخنازير ـ ولكنه بالغ .. وجعل خير الدولة فى خدمة الجيش .. سواء كان مقيماً فى كوبا .. او مهاجرا فى غابات افريقيا ، أن الميزانية العسكرية أحد الاسباب وراء فقر كوبا ، وراء ازمتها الاقتصادية التى عطلت الرخاء الموعود ، وبددت كل سوانح العيشة الطيبة التى يمكن أن يعيشها عشرة ملايين نسمة فوق جزيرة يمكن أن تعول ثلاثين مليونا !

ان الحكم الشمولى قتل الحافز على الانتاج ، ولهذا ضعف الانتاج ، وهو أمر يردده كاسترو فى خطبه الاخيرة

وقد انتشر مع الحرمان الفساد .. فالسرقة والرشوة والاختلاس مواليد طبيعية لهذا المناخ . وكاسترو يطارد الفاسدين ، ولكن الهمس يدور بأن المطاردة تتعقب الفاسد الصغير ولا تدرك الكبير .. لان الكبير ضمن مجموعة الحكم . ومجموعة الحكم او مجموعة الحزب هى الارستقراطية الجديدة التى استولت على قصور أصحاب الملايين الهاربين ، او بنت فيللات عصرية ، وهذه المجموعة شريكة فى صفقات سرية ، وما تستولى عليه اسرار محاطة بالكتمان .. لان تفتيق سر قد يجر الى تداعى كل الاسرار .. هذه الطبقة الجديدة حلت محل طبقة الفاسدين القدامى .. كانت معرضة لهجوم المعارضة .. اما طبقة الفاسدين الجدد ، فليس هناك معارضة تفتح فمها بكلمة عليها .. ليس هناك من يقول لها ثلث الثلاثة كم ..

ان سيطرة الدولة على اقتصاد كوبا ليس معناه سيطرة الشعب ، أن معناه سيطرة الحزب الذى لا يتجاوز عدد أعضائه ٧٪ من شعب كوبا ، ان شيوعية كاسترو لم تلغ الطبقة ، لانها خلقت طبقة تتسلق فوق كل الطبقات ان حال الفرد اقتصادياً لا يتجاوز الكفاف ، وهو فى الحرية تحت الرقابة ، وحتى صلاته لله فيها نظر وعليها مأخذ .

كوبا ... الى اين ؟

وقد اراد كاسترو بنية خالصة أن يقضى على عدم المساواة ، وأن يحارب الامية ، وان يحسن الصحة

العامة ، وأن يزيد معدلات التنمية ، ولاشك في انه نجح في كثير من هذه الميادين ــ خاصة محاربة الامية وتحسين الصحة العامة ــ والسؤال الان هو : هل يرتبط نظام كاسترو بكاسترو .. وجودا وعدما ؟ هل لو انتهى اجله ــ ولكل أجل كتاب ــ ينفرط العقد ، ويخرج الناس الى الشوارع فيقتلون النظام ، وينتقمون لانفسهم من سني القهر والحرمان ؟ ام ان كاسترو يمكن أن يموت وهو مطمئن البال الى أنه أرسى المؤسسات التى تحفظ النظام من بعده ، وتزيد النظرية عمقا فى الارض الكوبية وتصحح التجربة نفسها خاصة أن الامل باق فى أن تفيق الطبقة الجديدة الى أن ماتفعله يمكن أن يحكم المشانق حول رقابها .. والى أن كل شيء فاسد لابد أن تكون له نهاية ؟

لا احد يستطيع أن يجيب ؟ لا احد يمكن أن يقول ما الطريق بعد كاسترو ! هل يكفى أنه عين راؤول خليفة هل يكفى أن تعرف أن رافاييل روديجز منظر للثورة ورمز اعتدال وفيه أمل ؟ فى النظم الشمولية لا تكون الرؤية فى المستقبل واضحة ، ويصبح رسم صور الآتى رجما بالغيب ..

ان من الدروس المستفادة من تجربة كاسترو أن التصنيع يجب الا يكون على حساب الزراعة . وان التوسع الزراعى يجب أن يمول من السلع التصديرية التقليدية ــ لانها مضمونة الاسواق ــ ومن الدروس أيضا ضرورة الابتعاد عن الارتجال .

مرة ركز كاسترو على زراعة القصب لتصدير السكر وسمى هذا العام عام العشرة ملايين طن .. وكثرت

الأموال في أيدي الناس ، ولكن كلّ الزراعات الأخرى تأثرت ، مما هز الاقتصاد من أعماقه ، وسمى هذا العام عام رقصة المليونيرات ، ووقف كاســترو يخطب في الجموع ويقول ان الذي حدث خطأ شخصي منه .. وهو الذي يحاسب عليه ..

ولكن من ذا الذي يحاسب كاسترو ؟

ومن الدروس المستفادة ــ ولعلها السبب في تخفيف غلواء كاسترو ــ أن تطبيق النظام الشيوعي باسـتعمال شعارات الضمير الاشتراكي أمر مقضي عليه بالفشل .. لان الانسان يريد المكاسب والحوافز .. فليكن هذا في الاعتبار ! وهذا يتطلب حسابات تكاليف دقيقة .. يجريها جهاز محاسبي مفتوح العينين ، أما الاعتمـــاد على الاخلاقيات النائمة في قلب الشعارات فهذا وهم وسراب !

ومن عيــــوب النظام ــ وان لم يعلن بعد أنه درس مستفاد للتطبيق ــ ان الشعب لا يشارك في الحكم ، فكوبا ثكنة جيش او لجنة حزب ، والمعلومات عنهـــا ليست دقيقة لان مايعرف هو مايتركه كاسترو يتسرب وعدم مشاركة الشعب في الحكم ، وتوزع الحيـــاة بين العسكر ، والتنظيمات جعل الناس ينفرون .. ولا يبالون ويفقدون الانتماء ، ويتمنون فرصة لاى كسب غــير مشروع ولو فرصة للفرار .. والدليل على هـــــذا أحداث ماريل وكشوف الراغبين في الهجرة من كوبا .. ويقولون ان عددهم يبلغ نصف مليون نســـمة .. وان الخوف يمنع اضـــعاف هؤلاء من أبداء الرغبة في الهجرة ..

وكاسترو يعتمد على الشباب فى وراثة حـكمه ، والاستمرار بنظامه يعتمد على « الكوادر » التى يغازلها ويزورها فى معسكراتها ، ويخطب فيها بالساعات — بالمناسبة كاسترو كان يمكن أن يخطب عشر ساعات متصلة .. فلما تجاوز الستين انقصها الى ثلاث ساعات فى احدى خطبه للشباب قال — وكانت المناسبة مرور ٢٥ سنة على الثورة :

— ان عام ٢٠٠٠ يخصكم اكثر مما يخصنا ..

وتهكم على الجالسين على المنصة — من سدنة الحزب وأقطاب الحكم قائلا :

— لا تظنوا أنكم الذين ستحكمون بعد ١٥ عاما لانه توجد هنا كوادر شابة غير مستعدة للسماح باستبعادها .

ومن الامريكيين من يراقبون صحة كاسترو وكأنهم يتمنون له الموت . تماما مثلما يتربصون بكيم ايل سونج رجل كوريا الشمالية ويطلقون عليه شائعات الموت ، أو أنباء سرطان يغزو الخلف من رقبته . وهم يتآمرون على كاسترو وقد قال جورج ماكجفرن ان كاسترو قدم له ملف يتضمن ٢٤ محاولة لاغتياله ، وأدلى روبرت ماهو المستشار السابق للمليارديير هوارد هيوز ان المخابرات الامريكية أرادت تسميم كاسترو ، وأن جيانكانا وروسيلى من رجال المافيا القدامى فى كوبا — وكانا يملكان صالات قمار — تعهدا بتصفية كاسترو جسديا ! حتى جاك أندرسون — وهو من الكتاب الإمريكيين الشجعان — قال انه يستطيع أن يحدد أربع مؤامرات لاغتيال كاسترو .. واحدة منها أثناء زيارته لشيلى ، وقال ان المخابرات الإمريكية كانت تخطط المؤامرات بعيداً عن الحكومة الامريكية .. وكأنها فاعل خير يعطى فى الخفاء !

ولاشك فى أن كاسترو يعيش فى حالة رعب . ومنذ شهور قتل حرسه سيدة انجليزية من السلك الدبلوماسى لانها مضت بسيارتها فى عكس اتجاه سيارة كاسترو .. وهى لا تعلم أن هذا ممنوع ، وقد كفت الخارجية البريطانية على الخبر ماجورا بعد أن تبين لها انه ليس وراء قتلها سوء نية !

وكاسترو حريص على أن يبدو عفيا وقويا .. فهو يلعب البيسبول ـ مع أنها لعبة أمريكية صميمة ـ ويمارس كرة السلة والالعاب السويدية حتى لا يزيد وزنه ، وهو يسبح كالتمساح ويغوص الى عمق ثمانية أمتار .. وقد أصيب بازمة قلبية ، وهى ما يحاول الامريكيون ان يعرفوا نتائجها أو خط سيرها . ولكن كوبا متقدمة طبيا ، وجراحات القلب تجرى فيها بنجاح منذ عدة اعوام ، وقد أجريت فيها حفنة عمليات عظمى فى القلب ونجحت .. فهل لا يحافظون على قلب كاسترو ؟ وكل الذى بدا على كاسترو شيئان أحدهما بارادته وهو انقاص عدد السيجارات التى يدخنها الى اربعة فى اليوم بعد أن كان يدخن احد عشر سيجارا .. وثانيهما بغير ارادته .. لان اللون الابيض سرق اللون الاسود من فوديه .. وخصلاته ! وبالمناسبة عرضت عليه شركة شفرات أن تحلق له ذقنه بمليون دولار .. فرفض لانه لا يحب أن يسلم ذقنه للامريكيين ..

وكاسترو خير من يعرف أن أغلب شعبه وان كان يعلن الشيوعية فان الشيوعية لم تصل الى قلبه ، ولهذا قال فى احدى خطبه أن الشرط الرئيسى للثائر ان يكون واقعيا ، ومن المهم جدا الامساك بالسلطة والقوة وحماية

الثورة من الدنس ، ولكن من غير الممكن تحقيق التغييرات الاجتماعية بجرة قلم .. ان الانتصار فى الحرب هو فى الواقع أسهل من تحقيق النجاح للثورة ..

وهذا هو الدرس الاكبر فى عمرى !

وقد عرف ان الاخطاء كثيرة ، ولهذا أصبح الناقد الاول للتطبيق الشيوعى فى بلاده ـ حتى وان قتل دونه ـ انه يريد الاصلاح بكل وسيلة ، قد أقال وزيـــرا للصناعة بنى مصنعا ولم يبن بجواره مساكن للعمـــال ، ورفت مسئولا كبيرا استورد من الاتحاد الســـوفييتى عربتين كبيرتين لاكتساح الجليد .. وقال له : لن تعود الى عملك الا بعد أن يسقط الجليد فى كوبا .. ونجد عملا للعربتين ! والمعروف أن كوبا استوائية ... وهى لا تعرف الجليد !

وكاسترو يلتقى بمديرى المؤسسات والمصـــــانع ويناقشهم وينصحهم .. حتى لو لم يكن خبيرا فيمـــا يتحدثون عنه ، فالعادة أن الديكتاتور هو « ابو العريف » الذى يفهم فى كل شىء !

مدرســة المشاغبين
فى جزيرة الشباب !

واذا كان كاسترو لم يمكن لمؤسسات تتلقى الحكم بعده ، بل أعد الكوادر وجعلها امينة على ثورته ، ونصبها وارثة للمستقبل ، فان من فتونه بما يفعل انه أراد تصديره للخارج . وعيب نظامه انه يطبق الاوليات مـن مبادىء لينين مع أن أكثر الدول الشيوعية انصرفت عنها وبدأت تفتح الابواب للمرونة ، ولمواجهة أطماع النفس البشرية ، ولتلبية نوازع الدين .. عرف كاسترو ـ وهو

الذى يحاول أن يعتدل بنظريته ــ ان ليس من سبيل الى نقلها الى دول أخرى ــ جيوشه فى افريقيا فشلت .. فماذا فعل ؟ جاء بحوالى ٢٤ الف شاب من الدول الصديقة ، ــ ٧٠٠ منهم من الدول العربية ــ ووضعهم فى مدارس داخلية خاصة فى جزيرة سماها : جزيرة الشباب ، وتسميتها الاولى جزيرة الخنازير ، وفيها سجن كاسترو بحكم من باتستا لبضعة شهور ! هذه الجزيرة عند الطرف الجنوبى لكوبا . وقد أصبحت فريدة بما يجرى عليها . فالضيوف فى أعمار بين عشر سنوات وعشرين عاما ــ وربما اقل قليلا أو أكثر قليلا ــ وهم يتعلمون علوم بلادهم على أيدى أساتذة من هذه البلاد .. ذلك لانهم عائدون الى بلادهم عائدون ، ولكنهم مع علوم بلادهم بلغاتهم يتشربون ماركسية كاسترو .. لتبقى فى قلوبهم وعقولهم .. خاصة أنهم فى أعمار التأثر السريع ..

ودولة مثل السودان مثلا غضبت حين سمعت أن لها أبناء فى جزيرة الشباب ، وقد ذهب وزير الثقافة السودانى الى كوبا ليحقق الخبر فتأكد له ، وعرف أن هؤلاء الشبان ذهبوا الى كوبا عن طريق أثيوبيا . وهى معروفة قصة رئيس الكونغو برازافيل نجوسو حين ذهب الى هافانا لحضور مؤتمر عدم الانحياز وكان معه ٢٥ شابا ، وقد تركهم وعاد . فلما سأله أهلهم أين اولادنا قال : تركتهم عهدة عند صديقنا كاسترو ! وحدث ذعر فى برازافيل ، ومنعت الامهات أولادهن من الذهاب للمدارس ، ولكن نجوسو كان قد وعد كاسترو بارسال بضع مئات ليتعلموا فى جزيرة الشباب ، وقد أعلنت

المدارس الكاثوليكية انها ستوفد بعثات الى باريس من المتفوقين ، ولكن أولياء الامور عرفوا الغولة .. وهرعوا الى المدارس ينتزعون اولادهم منها ، وحرك رئيس الجمهورية الجيش ليحاصر المدارس ، وبدا واضحا ان ترحيلهم سيتم بقوة السلاح ، ولكن الطيارين فى شركة ايرافريك للطيران رفضوا الطيران بالقصر مالم يحصلوا على موافقة أولياء الامور كما تقضى القوانين الدولية للطيران . ولما كان هذا مستحيلا جاء نجوسو بطيارين قدم لهم مكافآت سخية .. واخذوا الاولاد الى جزيرة الشباب وسط عويل الاهل !

ولكن ليس كل من فى الجزيرة ممن جاءوا فى بحر الدموع هذا ..

ونظرية كاسترو فى تدريب هؤلاء الطلبة وتلقينهم تشبه مثل النظرية البريطانية القديمة التى كانت تأخذ أبناء المستعمرات من الاسر الكبيرة لتكون منهم طبقة تنتمى بالثقافة والولاء الى بريطانيا ، فاذا كبروا رسخوا للاستعمار فى بلادهم .. لانهم تلاميذ هذا الاستعمار ..
وصحيح أن كاسترو لم يستعمر الدول الافريقية ، ولكنهم يقولون أنه بهذا يريد لنظريته أن تبقى ، ويريد أن تكون جزيرة الشباب رأس حربة او جسرا ثقافيا تعبر عليه الشيوعية الى افريقيا !

ولهذا يسمونها مدرسة المشاغبين الدوليين ...
وكاسترو يزورهم ، وهو شديد الظرف معهم .. كأنه يرى فيهم شبابه !

وهو القائل ان الشيوعية دواء مر لداء اشد مرارة .. واعتداله الاخير قاطع له بانه يبحث عن دواء اقل مرارة .. وربما عن دواء من قصب السكر !

ثوميل لبيب

فهرس

كتاب الهلال يقدم :

١٢٠ يوما في الدنيا الجديدة

بقلم : د . على شلش

يصدر : ٥ مايو سنة ١٩٨٨

رقم الايداع : ٣٢٤٦ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٨ - ٤١٣ - ١٠٣ - ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣

13079 ـ تليفون ٤٧٤١١٦٤

أسعار بيع للعدد العادى فئة ٧٥ قرشا :

سوريا ١٨٠٠ ق . س ، لبنان ٣٥٠ ليرة ، الأردن ٥٠٠ فلس ، الكويت ٤٠٠ فلس ، العراق ١٦٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، السودان ٢٥٠ ق . سودانيا ، البحرين ١٢٠٠فلس ، الدوحة ٨ ريالات ، دبى ٨ دراهم ، ابو ظبى ٨ دراهم ، مسقط ٧٥٠ بيسة ، تونس ١٦٠٠ مليم ، المغرب ١٥٠٠ فرنك ، غزه والضفة ٧٥ سنتا ، اليمن الشمالية ١٣ ريالا ، عدن ١٤٤ سنتا ، الصومال ١٣٠ بنيا ، لاجوس ١٢٠ بنيا ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، لندن ١٥٠ سنتا ، اثينا ٢٠٠ دراخمة ، كندا ٥٠٠ سنت ، البرازيل ٦٠٠ سنت ، استراليا ٦٠٠ سنت ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة .

هذا الكتاب

آخر ماخطه قلم الكاتب الكبير فوميل لبيب .

رحلة الى كوبا فى آخر العالم ، تلك الجزيرة الصغيرة التي تواجه الدولة العملاقة الولايات المتحدة الأمريكية ، والتى كانت ثورتها بداية متاعب واسعة فى حديقة امريكا الخلفية . وفيه يرصد مايجرى والثورة الكوبية تخطو الى عامها الثلاثين ، بعد أن عبرت طريقا مليئا بالأشواك والدموع والتضحيات .

ويحمل الكتاب متعتين : متعة الدراسة والتنقيب . ومتعة الرحلة واللقاء بالحقيقة وجها لوجه .

ويظهر خلاله جهد فوميل لبيب كصحفى موهوب ذهبت به مهنته الى اقصى الأرض ، ولايكتب سوى فى حرارة الحدث أو المكان ، وهو كتاب هام فى ادب الرحلات ، أدب التجربة الشخصية والملاحظة الثابتة لشاهد عيان وفيه مزج خبراته المتعددة وتجاربه العميقة ، فى مجالات مختلفة الفن والأدب والسياسة ، وجاء بعد مؤلفات عديدة ، فقد اصدر كتابا هاما عن الاتحاد السوفييتى . وله كتاب عن أهل الفن عنوانه « نجوم عرفتهم » وله كتاب عن المطربة اسمهان وآخر عن فريد الأطرش ، وله عمل روائى كبير هو « الرصيد » وكتاب سياسى آخر هو « السلام الصعب » .

وأبى قبل ان يرحل عن دنيانا إلّا أن يترك وراءه للأجيال القادمة خبرته وتجاربه حية ، باحثا عن كل جديد يقدمه لقارئه .

مؤسسة
دار الهلال
١٥٠